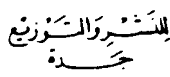
استجابات إسلامية
لصرخات أندلسية







فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية
موسى ، محمد حسن
استجابات إسلامية لصرخات أندلسية
١١٢ ص ؛ ٢٠ سم
ردمك X-٩-٦-٩٠٠-٩٩٦٠
١ - الإسلام والمجتمع
٢ - الحضارة الإسلامية- الأندلس
أ - العنوان
ديوي ٢١٢,٦ ١٥/٠٠٩٧

رقم الإيداع : ١٥/٠٠٩٧
ردمك : X-٩-٦-٩٠٠-٩٩٦٠

محمد بن حسن بن عقيل موسى





الطبعة الأولى

١٤١٥ هـ - ١٩٩٤م

الناشر

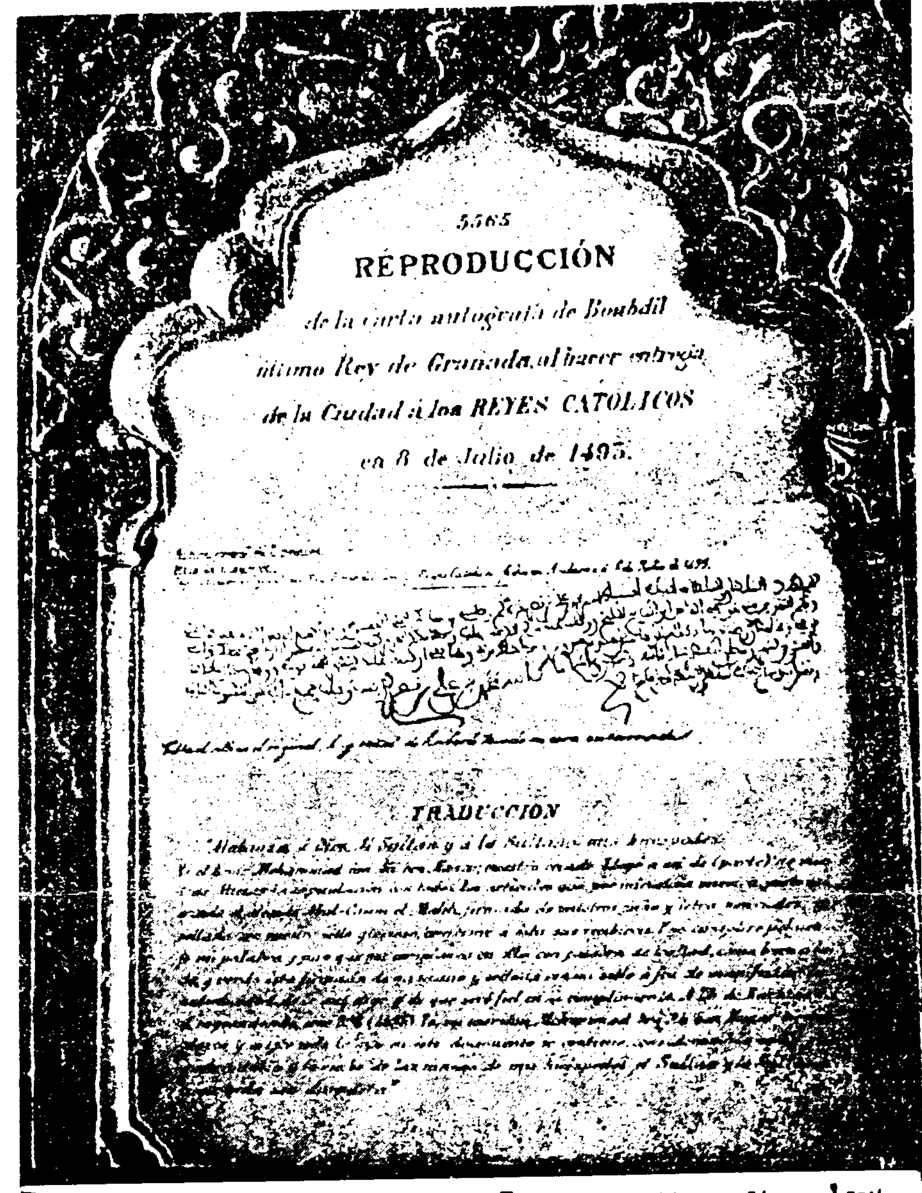
دار الأندلس الخضراء
للنشر والتوزيع
جدة

جدة (٢١٥٤١)

ص . ب (٤٤٣٤٠)

الإدارة : حي الجامعة - هاتف / فاكس ٦٨٠٨٩٦٢

المكتبة : حي السلامة - هاتف ٦٨٢٥٢٠٩



5565

REPRODUCCIÓN

de la carta autógrafa de Boabdil

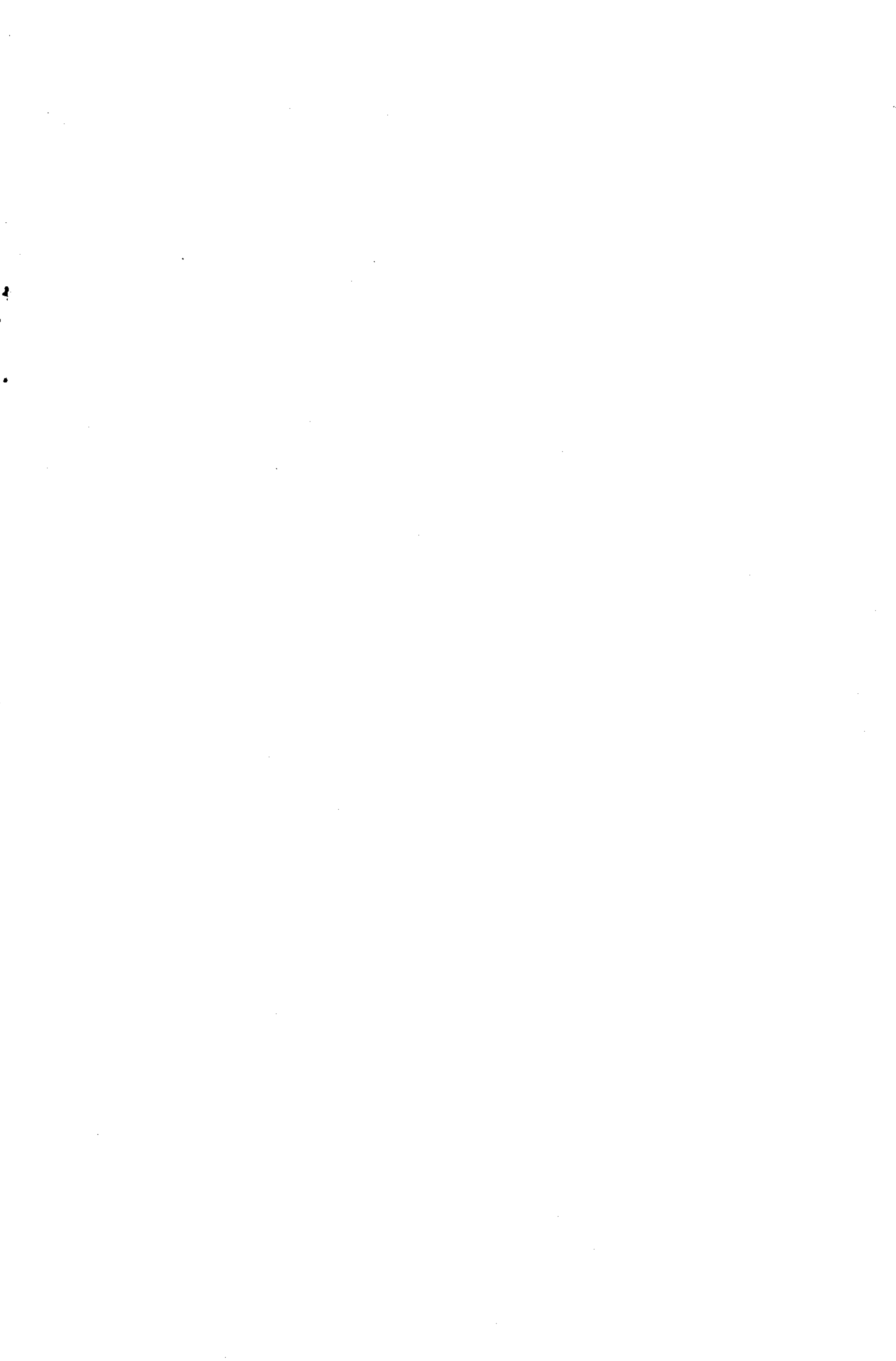
último Rey de Granada, al hacer entrega

de la Ciudad á los REYES CATÓLICOS

en 8 de Julio de 1493.

TRADUCCION

موافقة أبو عبد الله محمد (الحادي عشر)، آخر ملوك غرناطة، على ترك الأندلس، بتاريخ ٢٣ رمضان ٨٩٨ هـ (٨ تموز = يوليو ١٤٩٣ م). عن الصورة المحفوظة في المتحف الحربي (Museo del Ejercito) بمدريد



فجائعُ الدهـــرِ أنـــــواع منوعـــــة
وللزمـــــان مســــــرات وأحــزانُ
وللحـــوادث سلـــوان يسهلهـــــا
وما لما حـــل بالإســـلام سُلـــوانُ
دهـــى الجزيـــرة أمر لا عـــزاء له
هــوى لــه أحـــد وانهـــد ثهـــلان
أصابها العين في الإســلام فارتزأت
حتى خلــت منــه أقطـــار وبلــدان
فاسأل بلنســية ما شأنُ مرسيـــــة
وأيـــن شاطـــبة أم أين جيـــان
وأيـــن قرطبـــة دار العلوم فكم
من عالم قد سمـــا فيهـا له شـــانُ
وأين حمص وما تحـــويه من نــزه
ونهــرها العـــــذب فياض وملآن
قواعد كن أركان البـــلاد فمـــا
عسى البقاء إذا لم تبـــق أركـــانُ

تبكي الحنيفية البيضـــــاء من أسف
كما بكـى لفـــراق الإلف هيمــانُ
على ديـــارٍ من الإســـلام خاليــة
قد أقفرت ولهــــا بالكفــر عمــران
حيث المساجد قد صـــارت كنائس
ما فيهن إلا نواقيــــــس وصلبــان
حتى المحاريب تبكـي وهـي جامــدة
حتى المنابـر ترثـي وهـي عيـــدانُ

بسم الله الرحمن الرحيم



مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على رسول الله سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن والاه ، وبعد :

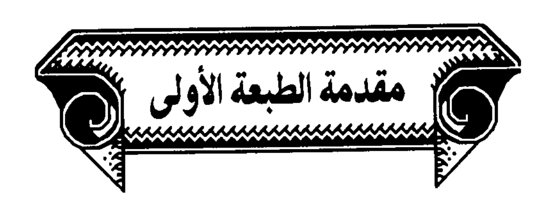
فهذه الطبعة الثانية - بفضل الله تعالى - من هذا الكتاب ، وهو آثر كتبي لدي لسببين :

الأول : أنه من أول ما وفقني الله - تعالى - لكتابته وبحثه .

الآخر : أن قضية هذا الكتاب هي ما حدث لمسلمي الأندلس ، وهو يشبه - إلى حد كبير - ما يحدث لمسلمي

فلسطين والبوسنة وكشمير في هذه الأيام ، فلعمق الصلة بين هذه الأحداث وتلك كان هذا الكتاب مثيراً للشجن ، ومذكراً ورابطاً بين الأمس واليوم ، ولذلك كان له مكان الصدارة بين ما كتبت .

أسأل الله تبارك وتعالى أن ينفعني والمسلمين بما كُتب ويجعله في موازين أعمالي يوم القيامة ، إنه سميع مجيب .



مقدمة الطبعة الأولى

الحمد لله ناصر عباده المؤمنين ولو بعد حين ، ووعد بدخول جنات عدن عباده المجاهدين ، والصلاة والسلام على من بعث بالقرآن والسيف ليطوي ممالك الجبارين ، ويزيل الطغاة والملحدين ليستضيء العالم بنور الدين ، ويزول عنه ظلام الجاهلين ، وعلى آله وصحبه أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ، وبعد :

ليس عجباً أن يطرق موضوع قديم كهذا اليوم ، إذ أننا نشاهد إخواننا فى كل مكان من المعمورة - تقريباً - يحاربون ويضطهدون ولا نجد الرد المناسب ولا الاستجابة المطلوبة نحوهم ، وسوف يطالع القارىء الكريم كيف استجاب المسلمون للصرخات الأندلسية في وقت تباعدت فيه الديار ونأت ، ولم يكن لوسائل الإعلام في ذلك الزمان جزء مما للعالم اليوم من الإمكانيات الضخمة .

وليس الغرض من طرح هذا الموضوع بعث التشاؤم وزيادة الأحزان ، ولكن الغرض الأساسي منه هواستقاء العبرة من أحداث التاريخ وعدم الاكتفاء بالعَبرة عند تتابع الكوارث والمصائب ، فالعالم الإسلامي بحاجة إلى استنهاض أهل الغيرة والهمة والقيام بعمل جاد وليس البكاء الذي هو من شيمة الضعاف والمنقطعين . ولله در تلك المرأة التي خاطبت ابنها - الملك أبا عبد الله الصغير - قائلة له عندما رأته يبكي غرناطة آخر معاقل المسلمين :

« ابك كالنساء ملكا لم تحافظ عليه كالرجال »

وما أشبه الليلة بالبارحة ، فهذه معاقل المسلمين في البوسنة والهرسك تُطوى ، والصليبيون يهددون باقي الوجود الإسلامي في كوسوفو وألبانيا وغيرهما من ديار المسلمين ، فالله المستعان .

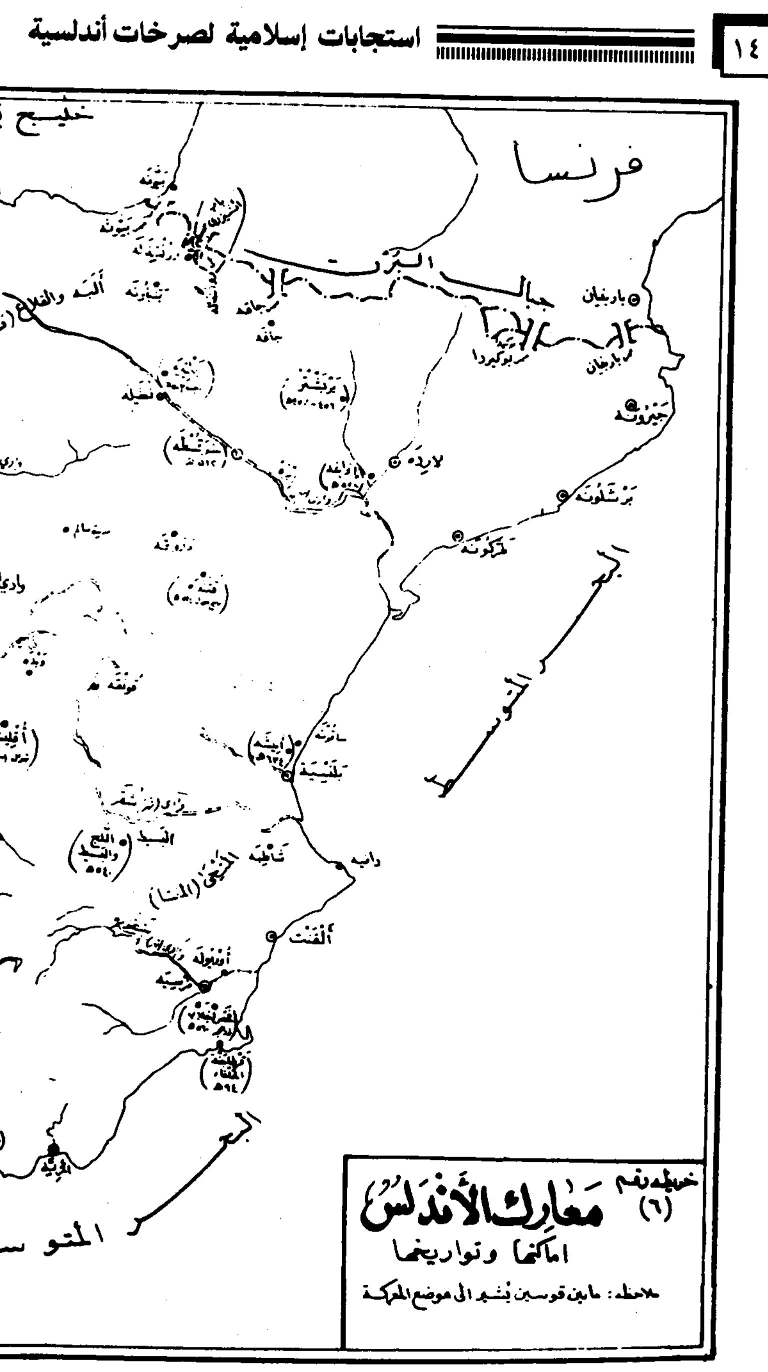
وسوف يجد القارىء في هذا الكتاب أمثلة للحكام ومواقف لهم تكاد تماثل ما يراه اليوم من تنازلات وخيانات وعمالات لكثير من حكام المسلمين ، وفي الكتاب أيضاً مواقف ذليلة تشابه في ذلتها ما تلقاه أمتنا اليوم من ذل وهوان .

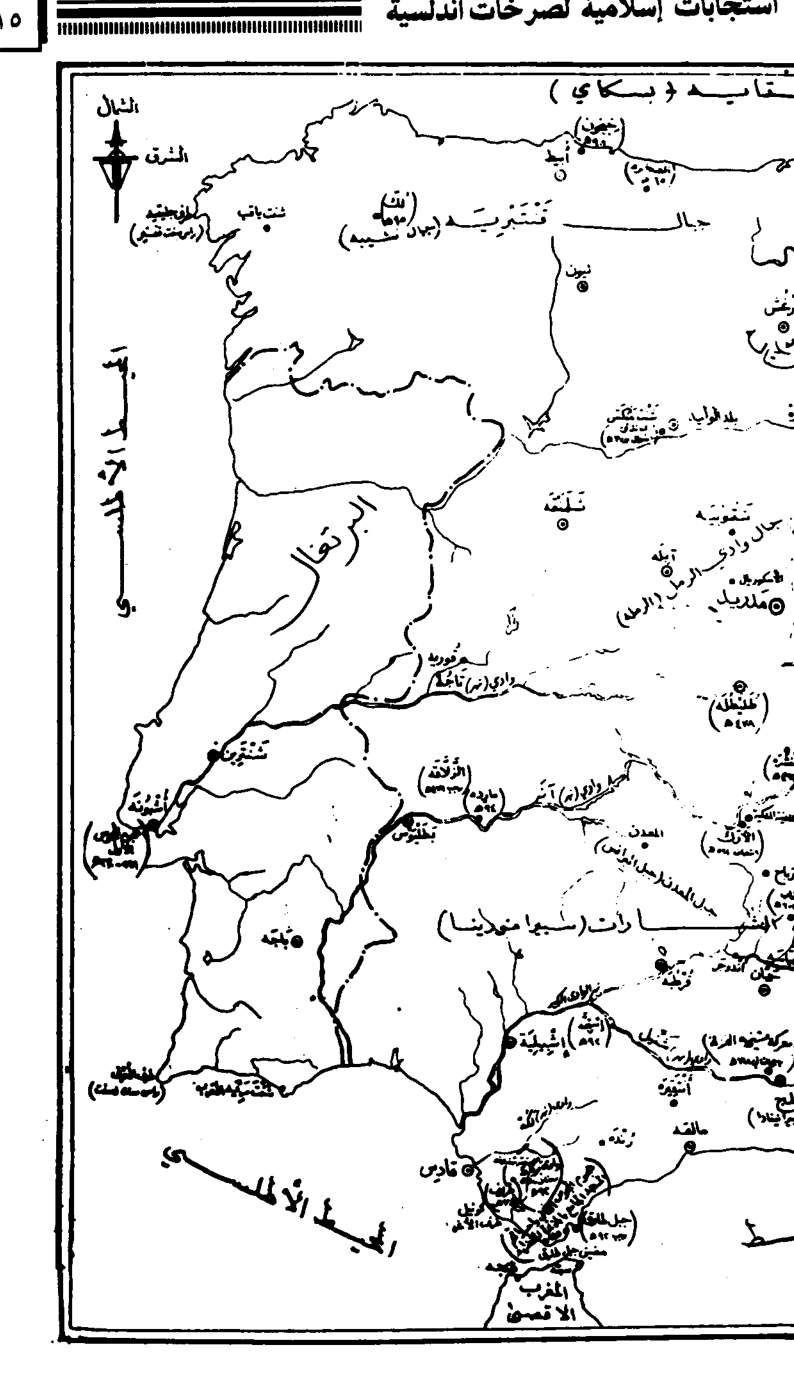
وسوف أركز في هذا البحث على أمرين رئيسين :

الأمر الأول : عرض سريع لسقوط المدن الأندلسية وأسباب ذلك .

والأمر الآخر : استنجاد أهل الأندلس بالعالم الإسلامي والاستجابة لهذه الصرخات .

وسوف أسوق قبل ذلك نبذاً قصيرة لبيان تاريخ المسلمين في الأندلس مما يعين على فهم الأحداث الواردة في هذا البحث ، والله الهادي إلى سواء السبيل .


فرنسا
جبال البرت
البحر المتوسط
خريطة رقم (٦)
معارك الأندلس
اماكنها وتواريخها
ملاحظة: مابين قوسين يشير الى موضع المعركة
بارشلونة
طركونة
لاردة
بلنسية
شاطبة
دانية
ألقنت
مرسية
جيرونة


الشمال
المشرق
جبال قنتبرية
البرتغال
مدريد
طليطلة
الزلاقة
بطليوس
باجة
إشبيلية
قادس
رندة
مالقة
جيان
الأرك
تاجه
المعدن
شنترين
أشبونة
المحيط الأطلسي
المغرب الأقصى
سبتة



مدخل تاريخي

يتكون المجتمع الأندلسي قبل الفتح الإسلامي من عنصر القوط الغربيين الذين حلوا محل البرابرة الجرمان من قبائل الوندال بعد غارات عديدة من جانب القوط [١] ، ولما دخل المسلمون شبه الجزيرة الإيبرية [٢] فاتحين تهاوى القوط أمام تكبيرات المجاهدين وحماس الفاتحين ، ولم يستطيع لُذْريق - ملكهم - أن يفعل شيئاً على الرغم من أن جيشه بلغ أربعين ألفاً على أقل التقديرات ، وجعله بعض المؤرخين مائة ألف ، وكان جيش المسلمين اثني عشر ألفاً عامتهم من البربر ، وقائدهم طارق بن زياد .

---

(١) « الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب » : ٢٤ .

(٢) وهذا هو اسم البلاد التي تتكون من إسبانيا والبرتغال .

ومما يوضح إسلامية المعركة وغاية الفاتحين أن قائد جيش لُذْريق - تدمير - أرسل استغاثة إليه قائلاً : « إن قوماً لا يُدرى أمن أهل الأرض أم من أهل السماء قد وطئوا إلى بلادنا وقد لقيتهم فلتنهض إليّ بنفسك »[١] .

وخف لُذْريق بغرور الكافر لينجد قائد جيشه ومعه «أعداد دواب لا تحمل غير الحبال لكتاف الأسرى إذ لم يشكّ في أخذهم »[٢] و « اقتتل المسلمون والمشركون ثمانية أيام قتالاً شديداً وصبر الفريقان صبراً عظيماً ، ثم أنزل الله عز وجل نصره على المسلمين »[٣] .

هكذا نصر الله عبده طارق بن زياد وجنده سنة ٩٢ هـ في رمضان ، شهرِ النصر ، وتُسمى هذه المعركة « معركة وادي برباط » .

واستمر طارق يفتح البلاد الإيبرية وينشر فيها نور الإسلام ، ووصل حتى طليطلة ماراً بإشبيلية وجيان ،

---

(١) « التاريخ الأندلسي » : ٥٢ .
(٢) المصدر السابق : ٥٣ .
(٣) المصدر السابق : ٥٤ .

وأرسل سرايا لفتح قرطبة ومالقة وغرناطة وغيرها .

ولما سمع موسى بن نصير بما فعل طارق خف إليه في حملة قوامها ثمانية عشر ألفاً من جند الله الموحدين ليعين طارقاً ويكمل فتح باقي الأندلس .

وإذا أردت - أخي الكريم - أن تعرف بعض خصائص موسى بن نصير فاقرأ ما يلي لتعلم كيف فتح المسلمون تلك البلاد :

« كان من التابعين - رضى الله عنهم - وكان عاملاً كريماً شجاعاً ورعاً تقياً لله تعالى » .

« وكان من رجال العالم حزماً ورأياً وهمة ونبلاً وشجاعة وإقداماً » .

« وكان موسى بن نصير حين أنفذ طارقاً مكباً على الدعاء والبكاء والتضرع لله تعالى والابتهال إليه في أن ينصر جيش المسلمين ، وما عُلم أنه هزم له جيش قط » [1] .

« ولو أن قائداً معه ثلاث مئة ألف مقاتل ما أحاط

---

(١) هذه النصوص وما سبقها مأخوذة بتصرف قليل من« التاريخ الأندلسي » ، وقد نقلها مؤلفه بدوره من مؤلفات عديدة .

بالأندلس وأثخن فيها ما أحاط موسى وأثخنه في ذلك الأمد القصير بين أمم أعداء تموج حواليه كالأبحر الزاخرة . وما رأى الأندلس وحدها كفؤاً لهمته بل حدثته نفسه ، والتي قل مثلها فى نفوس البشر في بُعد الهمة ، أن يوغل في أرض الإفرنج ويعطف منها إلى الشرق حتى ينفذ من القسطنطينية »[1] .

أرأيت أخي القارىء : جد وعزيمة وهمة ، عوامل اجتمعت مع قوة الإيمان وعظم التوكل لتدك معاقل الكفر وتنشر نور الإسلام ، وبمثل هذه العوامل يعود مجد الإسلام من جديد ، إن شاء الله تعالى .

* * *

(١) « التاريخ الأندلسي » ١٢٤ نقلاً عن تاريخ غزوات العرب ، ٥٨ (تعليق شكيب أرسلان) .

المجتمع الجديد في الأندلس

أصبح المجتمع في الأندلس - بعد الفتح المجيد - يتكون من فئات متعددة هي :

١ - **العرب** ، وكانوا يمثلون صفوة المجتمع الأندلسي وقيادته وكان منهم قيسيون ويمنيون وشاميون .

٢ - **البربر** ، وهم الذين كان لهم الدور الأكبر في الجهاد في الأندلس وينتمون إلى قبيلتي زناته ومصمودة ، وقد استقروا في المناطق الجبلية .

٣ - **الإسبان** الذين دخلوا في دين الله أفواجاً ، وكانوا ينحدرون من أصول عديدة : قوط ، ونـدال ، إلخ . . .

٤ - **المستعربون** ، وهم الإسبان الذين كانوا يعيشون بين المسلمين ويتكلمون العربية ولكنهم كانوا محتفظين بدينهم ، ولقد عوملوا معاملة حسنة وتمتعوا بحرية تطبيق شعائر دينهم ، كما هو شأن المسلمين في معاملتهم لأهل البلاد المفتوحة .

٥ - **اليهود** ، الذين تمتعوا بحرية كبيرة فقدوها أيام القوط ، ولقد ترجموا الكتب العربية إلى العبرية واللاتينية ونبغ منهم عدد في الطب والفلسفة والفلك والكيمياء [١] .

❋❋❋

(١) « الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب » ٢٤-٢٥ بتصرف .

الحضارة الإسلامية في الأندلس

لقد كان الفتح الإسلامي للأندلس نعمة عظيمة على أوروبا كلها ، إذ أوصل المسلمون لأهل تلك البلاد النور المعنوي الباقي الخالد المتمثل في رسالة الإسلام العظيمة ، وأوصلوا لهم النور الحسي المتمثل في الحضارة العظيمة التي أقاموها فأنجبت أجيالاً بارزة من العلماء والمفكرين والمبدعين في مختلف فروع العلوم والمعارف ، وقدموا للحضارة العربية الإسلامية والإنسانية العالمية إسهامات جليلة كان لها الفضل الأكبر في نهضة أوروبا الحديثة ، إذ فتحت لرواد تلك النهضة آفاقاً وطرقاً للإبداع والاختراع والابتكار .

ولنقرأ سوياً بعض تلك النماذج الحضارية في المجال الأدبي :

يقول روسكين جب :

« لعل خير ما أسدته الآداب الإسلامية لآداب أوروبا أنها أثرت بثقافتها وفكرها العربي في شعر ونثر القرون الوسطى » .

وهناك قصص أوروبية تعتبر أندلسية قلباً وقالباً مثل قصة «دون كيشوت» ، وقصة « رودينسون كروز » المقتبسة من قصة « حي بن يقظان » للكاتب الأندلسي ابن طفيل ، وغيرهما من عشرات الأمثلة .

وفي المجال الفلسفي استفادت أوروبا من فلاسفة الأندلس أمثال : ابن باجة السرقسطي ، وابن طفيل ، وابن رشد [1] حتى قيل إن تعاليم ابن رشد الفلسفية هي التي دفعت الأوروبيين إلى عصيان تعاليم الكنيسة والأخذ بمبدأ حرية الفكر وتحكيم العقل على أساس المشاهدة والتجربة مما دفع الكنيسة إلى إصدار عدة قرارات بالحرمان لمن يردد فلسفته .

واستطاع مسلمة المجريطي أن يكون إماماً في الرياضيات في الأندلس وخطا هو وغيره من رياضيّي المسلمين خطوات هائلة في تطوير علومها المختلفة من حساب وهندسة وجبر وميكانيكا وحساب مثلثات وفلك ، وقد نقل بابا روما قبل أن يصل إلى البابوية نظام الحساب ونظام الصفر إلى أوروبا من الأندلس .

---

(١) هذا على ما للفلسفة وهؤلاء الفلاسفة من مآخذ شرعية لا مجال لذكرها ها هنا .

وقد كان مرصد قرطبة مناراً لعلم الفلك ، واستطاع الزرقالي الطليطلي أن يخترع جداول فلكية تعتمد على قوانين عديدة فيما يخص كل كوكب وحركاته ووضعه وسرعته وانتقاله ورجوعه وما إلى ذلك ، وقد نسب هذه الجداول لنفسه ألفونسو العاشر القشتالي وصارت تعرف في الغرب باسمه كعادة الأوروبيين في غمط المسلمين حضارتهم وعلمهم .

ويصعب حصر استكشافات المسلمين في علم الفلك وعظمتهم في هذا المجال ، ولا تزال كثير من المصطلحات الفلكية الغربية اليوم تحمل الأسماء العربية كما هي بدون تحريف تقريباً .

وفي المجال العسكري استطاع الغرب أن يستفيد من تقدم المسلمين في اختراع القنابل والأسلحة النارية ، وعندما هاجم ألفونسو الحادي عشر مدينة الجزيرة الخضراء جنوب الأندلس عام ١٣٤٢م فاستعمل المسلمون ضده الأسلحة النارية ، وكان حاضراً معه آنذاك كونت دربي وكونت سالسبوري الإنجليزيان فشاهدا نتائج هذا الاختراع وأسرعا في نقل كيفية صنعه واستعماله إلى بلادهم ، واستخدمه الإنجليز بعد أربع سنوات في معركة « كرسي » ضد الفرنسيين .

وأما الطب والجراحة فيكفي في هذا المجال عائلة ابن زهر، وابن رشد، وابن البيطار المالقي، وابن حزم الأندلسي وأبو القاسم الزهراوي وغيرهم ممن ترجمت كتبهم وكانت مراجع معتبرة إلى فواتح القرن التاسع عشر .

وفي ميدان الصناعة كان للأندلس دور بارز في تعريف الأوروبيّين بعدد هائل من الصناعات منها الورق والدباغة والنسيج والخزف والزجاج والسكر والبارود والزخرفة وغيرها .

ويكفي أن أول مصنع للورق في أوروبا كان في إيطاليا، وأقيم سنة ١٢٧٦م، وكان الفضل في ذلك يعود إلى مصنع الورق في شاطبة ومصانع الورق في المغرب العربي .

وأما الزراعة فيعود الفضل للمسلمين في تعريف أوروبا بمزروعات لم تكن معروفة لديها قبل ذلك مثل القطن وقصب السكر والبرقوق والياسمين والزعفران والزنجبيل وغيرها [1] .

والمقام يضيق عن التفصيل، وحسب المعتبر العاقل ما أوردته، والله أعلم .

---

(١) في تطور الأندلسيين العلمي رجعت إلى كتاب « الدراسات الإسلامية » عدد خاص عن المسلمين في الأندلس : ٢٩٣-٣١٩ .

عهود مرت بها الأندلس

هذه نبذة مختصرة عن الوضع السياسي لبلاد الأندلس من الفتح إلى السقوط :

أولاً : عهد الولاة :

وأعني به الولاة المعينين من قبل الدولة الأموية على بلاد الأندلس ، وهذا العهد يمتد من الفتح الإسلامي حتى دخول عبد الرحمن الداخل للأندلس وتأسيس إمارة مستقلة سنة ١٣٨ هـ .

ويمتاز هذا العهد بمحاولة التوسع في الفتوحات والجهاد والإيغال في بلاد فرنسا حتى أن جموع المجاهدين وصلت إلى طولوشة - أوتولوز كما تعرف اليوم - بل قد وصلت إلى مدينة بواتييه - ٢٠٠ كم جنوب باريس - حيث قدر الله - هناك- الهزيمة على المسلمين في معركة « **بلاط الشهداء**» ، وحرمت هذه الهزيمة أوروبا من نور عظيم كان سيعمها لو قدر الله للمسلمين النصر في تلك المعركة .

ويكفي أن أربعة من ولاة الأندلس استشهدوا في فرنسا وهم : السمح بن مالك الخولاني ، وعنبسة بن سحيم الكلبي ، وعبد الرحمن الغافقي [قائد معركة بلاط الشهداء] ، وعقبة بن الحجاج السلولي .

ثانياً : عهد الإمارة :

ويبدأ بدخول عبد الرحمن الداخل فاراً من العباسيين وإنشائه إمارة هناك حتى سنة ٣١٦ هـ وهي سنة إعلان الخلافة في الأندلس على يد عبد الرحمن الناصر .

ويمتاز هذا العهد بإقامة تنظيمات إدارية وعسكرية متممة للعهد الذي قبله ، مع العناية بالثغور والأساطيل ، ونمت في هذا العهد العلوم ، واتسعت المعارف ، وزاد الاهتمام بالكتب والمكتبات ، وأصبحت الأندلس في هذا العهد منارة ثقافية في العالم .

ومن معالم هذا العهد المهمة هو قيام عدد من الممالك الإسبانية في شمال الأندلس نتيجة تجمع لفلول المنهزمين أمام المسلمين ، وكان لهذه الممالك دور كبير في تقويض الإسلام في الأندلس بعد ذلك ، وتلك الممالك الإسبانية هي ليون وقشتالة ونبارة .

ثالثاً : عهد الخلافة :

ويبدأ من إعلان عبد الرحمن الناصر الأندلس خلافةً وذلك سنة ٣١٦ هـ حتى سنة ٤٠٠ هـ وهو عهد ملوك الطوائف .

وتتشابه كثير من معالم هذا العهد بمعالم عهد الإمارة السابق ويمتاز هذا العهد بكثرة هجوم المجوس الإردمانيين (النورمان) على سواحل الأندلس ، وبإنشاء كثير من المساجد العظام وبعض المدن والموانىء ، ووصل النشاط العلمي إلى غايته في هذا العهد .

ولقد انتهت هذه الخلافة بموت المستنصر سنة ٣٦٦ هـ ، وورثته الدولة العامرية التي حكمت الأندلس باسم الخلافة [١] .

رابعاً : عهد الطوائف :

ويمتد من سنة ٤٠٠ هـ إلي سنة ٤٨٤ هـ ، ولقد « عاشت الأندلس – بعد ذهاب الخلافة وانتهاء حكم أسرة بني عامر –

(١) « التاريخ الأندلسي » ، ولقد استقيت عهود الأندلس منه بتصرف من ص : ١٣٠-٥٣٠ تقريباً .

سنوات صعبة من الفرقة والتنافس ، وحاول عدد من المسؤولين المخلصين - حتى سنة ٤٢٢ هـ - استمرار وحدته وإعادة خلافته وبذلوا في ذلك الجهود الكبيرة دون جدوى ، فانتابت الأندلس حالة مريعة تبعث على الأسى ، عندها يبدأ قيام الطوائف حين تصدع بنيان ذلك الصرح الشامخ ، وأعلن أهل قرطبة وعلى رأسهم أبو الحزم جهور بن محمد ابن جهور إلغاء الخلافة . . . وضمت هذه الحكومة عدداً من المدن الأندلسية المتوسطة مثل : جَيّان وبَياسة من شمال قرطبة حتى حدود ولاية غرناطة ، بعدها قامت - في عدد من مناطق الأندلس - ممالك ، أو دويلات مستقلة يحكم كلا منها أمير مستقل عن غيره من الأمراء »[١]

وهذه الدويلات هي طليطلة وبطليوس وغرناطة وقرطبة وإشبيلية وسرقسطة وبلنسية .

خامساً : عهد المرابطين :

ويبدأ من سنة ٤٨٤ هـ - وهى السنة التى أتم المرابطون فيها خلع ملوك الطوائف الذين كانوا قد استنجدوا بالمرابطين ضد

---

(١) المصدر السابق : ٣٢٣ - ٣٢٤ بتصرف يسير .

الفرنجة - وينتهي بحلول الدولة الموحدية مكان المرابطين سنة ٥٤٠ هـ .

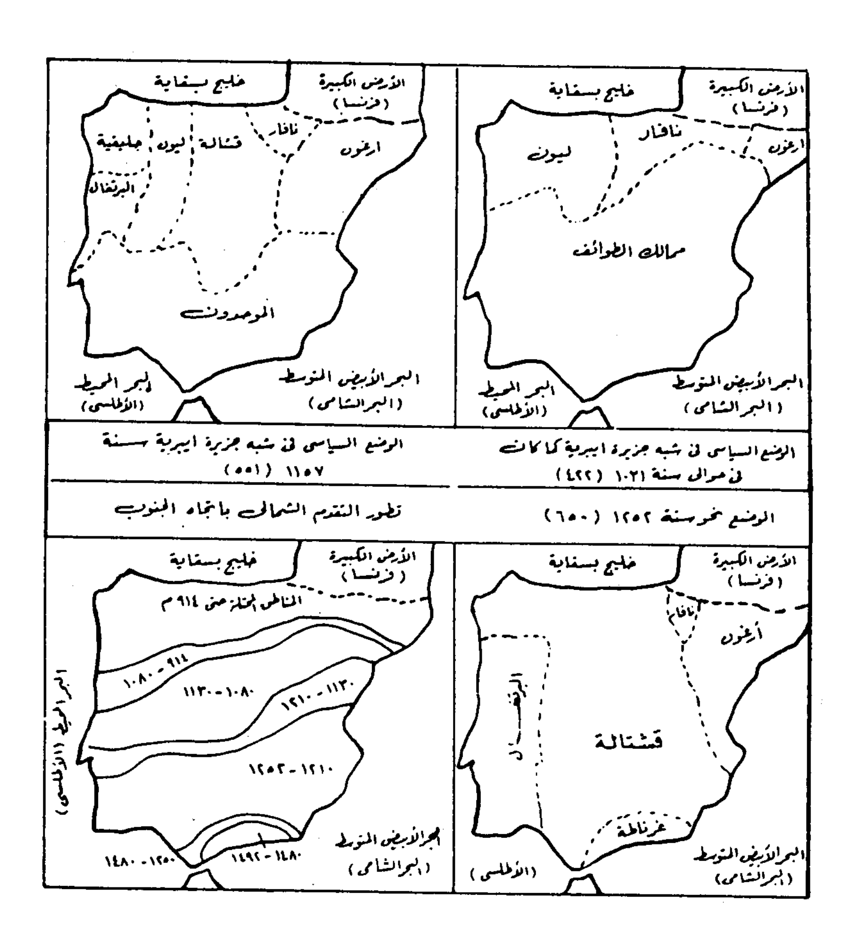
ويمتاز عهد المرابطين بكثرة النجدات للأندلس ، وبالمعارك الحاسمة القوية لصالح المسلمين كما سأبين ، إن شاء الله تعالى ، واستمرت الحركة العلمية والفكرية في هذا العهد قويةً إلى حد كبير .

سادساً : عهد الموحدين :

وهم الذين ورثوا المرابطين في الأندلس ، علماً بأن مركز المرابطين والموحدين هو المغرب الأقصى ، واستمر الموحدون في هذا العهد في الجهاد ضد الفرنجة ، وحدثت معارك حاسمة . وهذا العهد يبدأ من سنة ٥٤٠ هـ ، وينتهي سنة ٦٢٠ هـ .

سابعاً : مملكة غرناطة :

وهي التي بقيت تجاهد الصليبيين الإسبان قرابة قرنين ونصف حتى سقطت سنة ٨٩٧ هـ ، ويمتاز هذا العهد باستنجاد أهل غرناطة ببني مرين حكام المغرب وارثي الموحدين ، وحدوث عدة معارك بين المسلمين والصليبيين .



- مراحل انحسار النفوذ السياسي للمسلمين في الأندلس.

المصدر : عادل سعيد بشتاوي، الأندلسيون المواركة، دمشق، ١٩٨٥م، ص ٥٠

هذا عـرض تاريخي سـريع لحـال الأندلس خـلال ثمـانيـة قـرون من الحكم الإسلامي ، ولنتكلم الآن عن مقصـودنا من هذا البحث ، والله الموفق .

❋ ❋ ❋



سقوط المدن الأندلسية تباعاً وأسباب ذلك

حصل للأندلسيين ضعف شديد وذلة منذ أواسط القرن الخامس ، وصاروا يهادنون ملوك إسبانيا الشمالية ويدفعون لهم الجزية ، حتى أن المعتمد بن عباد - وهو أعظم ملوك الأندلس - كان يدفع جزية سنوية إلى الأذفونش [١] ونتج عن هذا الضعف والتفكك سقوط المدن تباعاً في أيدي الصليبيين .

وأما أسباب السقوط فأوجزها بما يلي :

أولاً : تعدد الإمارات وعداوة بعضها لبعض :

كانت مدن الجزيرة الأندلسية درراً منتظمة في سلك واحد، وواسطة العقد الأمير أو الخليفة ، ثم انفرط هذا العقد، وصدئت جواهره ، فدب الخلاف وعمت العداوة بين أمراء المدن الذين أعلنوها إمارات مستقلة ، ولدت ميتة قبل موتها :

---

(١) « نفح الطيب » ١٣٥-١٣٦ .

« ولم تزل هذه الجزيرة منتظمة لمالكها في سلك الانقياد والوفاق ، إلى أن طما بمترفيها سيل العناد والنفاق ، فامتاز كل رئيس منهم بصقع كان مسقط راسه ، وجعله معقلاً يعتصم فيه من المخاوف بأفراسه ، فصار كل منهم يشن الغارة على جاره ، ويحاربه في عقر داره ، إلى أن ضعفوا عن لقاء عدو في الدين يعادي ، ويراوح معاقلهم بالعَيث ويغادي [(١)] حتى لم يبق بأيديهم منها إلا ما هو في ضمان هدنة مقدرة ، وإتاوة في كل عام على الكبير والصغير مقررة » [(٢)] .

ثانياً : الخلاف :

وهو ما حذر منه تعالى بقوله : ﴿ **ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا** ﴾ [(٣)] .

وفي قوله تعالى ﴿ **واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا** ﴾ [(٤)] دلالة واضحة على وجوب الاجتماع ، وليس أدل على مغبة الاختلاف من عهد الطوائف ، والخلاف على السلطة عاقبته وخيمة ، حيث تعددت الخلافة وكثرت الممالك وتفرقت الكلمة « وصار في الأندلس عدة ملوك ، وصار الأمر في غاية الأُخلوقة ، اجتمع في الوقت أربعة

(١) العيث : الفساد . والرواح والغدو : وقتا الصباح والمساء .
(٢) « موقف الدولة العثمانية » : ١٩-٢٠ نقلاً عن « فتح الطيب »
(٣) آل عمران : [١٠٥] .
(٤) آل عمران : [١٠٤] .

يدعون بأمير المؤمنين في رقعة من الأندلس مقدار ما بينهم ثلاثون فرسخاً [١] في مثلها ، وغلب على كل قطر متغلب سمى بالمأمون ، ومنهم من تسمى بالمعتمد وآخر بالمتوكل حتى قال الحسن بن رشيق :

مما يزهدنـي فـي أرض أندلـس
سماع معتصم فيها ومعتضـد
ألقاب مملكـة في غير موضعها
كالهر يحكي انتفاخاً صولة الأسد [٢]

«فاتحاد السلطان في مثل هذه الأوطان واجب قياساً وسماعاً ، وتعدد الخلافة في مثل هذه المسافة غير جائز إجماعاً » [٣] .

---

(١) الفرسخ : ستة عشر ميلاً .
(٢) « نزهة الفضلاء » ٣/ ١٢١١ .
(٣) « الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب » : ٤٠ نقلاً عن «جنة الرضى » .

ثالثاً : المعاصي والترف :

وهذان داءان لا دواء لهما إلا الاستقامة على الشرع ، وهذا كان أمراً لا يتوفر لأمراء ذلك الوقت ، ولم تزل المعاصي والترف سببين لهلاك الأمم ، وما أصدق قول ابن تاشفين حين برر سبب دخوله الأندلس :

« إنما كان غرضنا في ملك هذه الجزيرة أن نستنقذها من أيدي الروم [الإسبان] لما رأينا استيلاءهم على أكثرها وغفلة ملوكهم [أي الأندلسيين] وعمالهم [أي نوابهم] للغزو ، وتواكلهم وتخاذلهم ، وإيثارهم الراحة ، وإنما همة أحدهم كأس يشربها ، وقَيْنة [مغنية] تُسمعه ، ولهو يقطع به أيامه ولئن عشت لأعيدن جميع البلاد التي تملكها الروم في طول هذه الفتنة للمسلمين ، ولأملأنها عليهم خيلاً ورجالاً لا عهد لهم بالدَّعَة [الراحة] ولا علم عندهم برخاء العيش وإنما هم أحدهم فرس يروضه ويستنفره ، أو سلاح يستجيده ، أو صريخ يلبي دعوته »[1] .

يقول مؤرخ مجهول وهو بصدد الحديث عن الفيضان الذي وقع بغرناطة سنة ٨٨٣ هـ :

---

(١) الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب » : ٣٤ نقلاً عن « المعجب »

« ومن وقت هذا السيل العظيم بدأ الأمير أبو الحسن [أمير غرناطة] في التقهقر والانتكاس والانتقاص ، ذلك أنه اشتغل باللذّات والانهماك في الشهوات ، واللهو بالنساء والمطربات وركن إلى الراحة والحفلات » (١) .

رابعاً : إهمال أمر الجند :

إذ الجند عماد المعركة وإهمال أمرهم وعدم الاهتمام بتسليحهم وتدريبهم وزيادة عددهم خيانة لله ولرسوله وللمؤمنين . كيف لا وقد قال تعالى : ﴿**وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم**﴾ (٢) .

ولقد قصّر حكام الأندلس في هذا المجال كثيراً ، فهذا أبو الحسن أمير غرناطة قد « ضيع الجند ، وأسقط كثيراً من نجدة الفرسان . . . ووزيره يضبط المغارم ويثقلها . . ويجهل كل من فيه نجدة وشجاعة من الفرسان ، ويقطع عنهم المعروف والإحسان ، حتى باع الجند ثيابهم وخيلهم وآلة حربهم وأكلوا أثمانها ، وقتل كثيرا من أهل الرأي والتدبير والرؤساء والشجعان من أهل الأندلس وحصونها » (٣) .

---

(١) المرجع السابق : ٥٤ نقلاً عن « نبذة العصر » .

(٢) الأنفال : [٦٠] . (٣) المرجع السابق : ٥٤ نقلاً عن « نبذة العصر » .

وفي معركة العقاب يذكر الذهبي - رحمه الله - أن أكبر أسباب الهزيمة غضب الجند من تأخر عطائهم [١] .

خامساً: تجمع جيوش الكفر على المسلمين :

ففي وقعة العقاب « سار ألفونسو في أقصى الممالك يستنفر عباد الصليب ، فاجتمعت له جيوش ما سمع بمثلها ، ونجدته فرنج الشام وعساكر قسطنطينية ، و ملك أرغون البرشلوني » [٢] .

سادساً : بطء نجدة المسلمين لإخوانهم :

ووصولها بعد سقوط المدينة في بعض الأحيان أو أنها لا تصل على الإطلاق ، إذ من يتصور - أخي القاريء - أن تحاصر طليطلة سبع سنوات كاملة دون أن ينجدها أحد حتى تسقط [٣] ، وهذه بلنسية تحاصر عشرين شهراً حتى أكل الناس الفئران والكلاب والجياف ووصل بهم الأمر إلى أن من مات منهم أكلوه ، ثم سقطت بعد ذلك [٤] .

---

(١) نزهة الفضلاء : ٣/١٥٦٦ .
(٢) المرجع السابق .
(٣) «نفح الطيب» : ٦/ ١٣١ .
(٤) «التاريخ الأندلسي» : ٣٧٣ .

ثم إن أهل بلنسية استغاثوا بصاحب تونس أبي زكريا ابن أبي حفص ولكنه قدم متأخراً[١] .

ووجه بعد ذلك الأمير يوسف بن تاشفين من فتحها مرة أخرى[٢] ، ثم سقطت سقوطها الأخير بعد ذلك .

وهذه سرقسطة تحاصر سبعة شهور ، وقيل : تسعة شهور[٣] .

وإشبيلية سقطت بعد أعمال حربية استغرقت عدة سنوات وحصار لمدة سنة ونصف[٤] .

كل هذا يحدث ويتقاعس أهل المدن الأخرى عن نصرة المدينة المحاصرة ، يقول أبو حيان رحمه الله واصفاً تقاعس الأندلسيين عن نصرة إخوانهم :

« ومن لدينا وحوالينا من أهل كلمتنا صموت عن ذكرهم لهات عن بثهم[٥] ، ما إن يسمع عندنا في مسجد من مساجدنا ومحفل من محافلنا مذكر بهم أو داع لهم فضلاً عن

(١) « نفح الطيب » : ٦/ ٢٥١ .
(٢) المصدر السابق : ٦/ ٢٤٦ .
(٣) التاريخ الأندلسي : ٤٢٨ .
(٤) المرجع السابق : ٤٨٢ .
(٥) أي شكواهم وحزنهم .

نافر إليهم أو مواس لهم ، حتى كأنهم ليسوا منا ، وكأن فتقهم ليس بمفض إلينا ، قد بخلنا عليهم بالدعاء بُخلنا بالغَناء ، عجائب مغربة فاتت التقدير وعرضت للتغيير ، ولله عاقبة الأمور وإليه المصير »[1] .

وقال ابن العربي رحمه الله :

« ولقد نزل بنا العدو - قصمه الله تعالى - سنة ٥٢٧ ، فجاس ديارنا ، وأسر جيرتنا ، وتوسط بلادنا ، فقلت للوالي والمولى عليه : هذا عدو الله قد حصل في الشبكة فلتكن عندكم بركة ، ولتكن منكم إلى نصرة الدين المتعينة عليكم حركة ، فليخرج إليه جميع الناس حتى لا يبقى منهم أحد في جميع الأقطار فيحاط بهم فإنه هالك لا محالة ، فغلبت الذنوب ، ورجفت بالمعاصي القلوب ، وصار كل أحد من الناس ثعلباً يأوي إلى وِجاره[2] وإن رأى المكيدة بجاره ، فإنا لله وإنا إليه راجعون »[3] .

سابعاً : مراوغة الإسبان لحكام المسلمين

---

(١) « التاريخ الأندلسي » : ٣٦٥ .

(٢) جحره .

(٣) « نفح الطيب » : ٦/ ٢٦٧ بتصرف .

وأخذهم إياهم بالحيلة والخداع والمكر ، وغفلة المسلمين شعوباً وحكاماً عما يراد بهم ، « ومن استقرأ التواريخ المنصوصة وأخبار الملوك المقصوصة علم أن النصارى - دمرهم الله تعالى - لم يدركوا في المسلمين ثاراً . . ولم يخربوا من الجزيرة منازل ودياراً ، إلا بعد تمكينهم لأسباب الخلاف ، واجتهادهم في وقوع الافتراق بين المسلمين والاختلاف ، وتضريبهم بالمكر والخداع بين ملوك الجزيرة ، وتحريشهم بالكيد والخلابة [١] بين حماتها في الفتن المبيرة [٢] . . . ولا أمل للطاغية إلا في . . إعمال الحيلة على المؤمنين وإضمار المكيدة للموحدين ، واستبطان الخديعة للمجاهدين ، وهو يظهر أنه ساع للوطن في العاقبة الحسنى ، وأنه منطو لأهله على المقصد الأسنى ، ومهتم بمراعاة أمورهم . وناظر بنظر المصلحة لخاصتهم وجمهورهم ، وهو . . يعمل الحيلة في التماس هلك الوطن وابتغائه ، فتباً لعقول تقبل مثل هذا المحال ، وتصدق هذا الكذب بوجه أو بحال » [٣] .

وانظر أخي القارىء لهذه الحيلة التي احتال فيها الفرنج

---

(١) أي الخداع .
(٢) أي المهلكة .
(٣) « نفح الطيب » : ٦/ ٣٠١ - ٣٠٢ بتصرف يسير .

على أهل بلنسية حيث نزلوا بساحتهم سنة ست وخمسين وأربعمائة « وأهلها جاهلون بالحرب ، معرضون عن أمر الطعن والضرب ، مقبلون على اللذات من الأكل والشرب ، وأظهر الفرنج الندم على منازلتها والضعف عن مقاومة من فيها ، وخدعوهم بذلك فانخدعوا ، وأطمعوهم فطمعوا ، وكمن في عدة أماكن جماعة من الفرسان ، وخرج أهل البلد بثياب زينتهم وخرج معهم أميرهم عبد العزيز بن أبي عامر ، فاستدرجهم العدو لعنهم الله تعالى ثم عطفوا عليهم فاستأصلوهم بالقتل والأسر ، وما نجا إلا من حصنه أجله ، وخلص الأمير نفسه »(١) .

« وكان طاغية النصارى الملعون لكثرة ما مارس من أمور ملوك الأندلس وسلاطين فاس كثيراً ما يدس لأقارب الملوك القيام على صاحب الأمر ، ويزين له الثورة ، ويعده بالإمداد بالمال والعدة ، وقصده بذلك كله توهين المسلمين وإفساد تدبيرهم ، ونسخ الدول بعضها ببعض لما له في ذلك من المصلحة »(٢) .

---

(١) المصدر السابق : ٦/ ٢٣٧ - ٢٣٨ .
(٢) المصدر السابق : ٦/ ٢٠٤ - ٢٠٥ .

وفي تلك الحوادث المذكورة أعظم العبرة والعظة ، فإن المسلمين عندما نسوا الله تبارك وتعالى أنساهم أنفسهم وسلط عليهم أحقر خلقه يسومونهم العذاب ، ويطردونهم من ديارهم ويفتنونهم في دينهم ، وما أشبه الليلة بالبارحة !

ثامناً : وآخر هذه الأسباب - أخي القارىء - هو أعظمها وأفتكها وأشدها وهو : **ضعف عقيدة الولاء والبراء** [١] عند كثير من الحكام الأندلسيين ، وهناك أمثلة تخرج عن حد الحصر ولكني سأورد بعضها مما يُبكي ويُنكي :

أ - أراد ملك طليطلة المأمون أن « يستنجد بالفرنجة على تملك مدائن الأندلس فكاتب طاغيتهم أن تعال في مائة فارس والملتقى في مكان كذا ، فسار في مائتين وأقبل الطاغية في ستة آلاف وجعلهم كميناً له ، وقال : إذا رأيتمونا قد اجتمعنا فأحيطوا بنا ، فلما اجتمع الملكان أحاط بهم الجيش ، فندم المأمون وحار ، فقال الفرنجي : يا يحيى [وهو اسم المأمون] وحق الإنجيل كنت أظنك عاقلاً ، وأنت أحمق ، جئت إليّ وسلمت

---

(١) عقيدة الولاء والبراء هي الولاء لله سبحانه وتعالى ولرسوله وللمؤمنين ومحبتهم ومناصرتهم ، والبراءة من الكافرين وبغضهم وعداوتهم .

مهجتك بلا عهد ولا عقد فلا نجوت مني حتى تعطيني ما أطلب ، قال : فاقتصد ، فسمى له حصوناً وقرر عليه مالاً في كل سنة ، ورجع ذليلاً مخذولاً ، وذلك بما قدمت يداه »[١].

ب - وهذا محمد بن يوسف بن هود سلطان الأندلس قام عليه شعيب بن هلالة بـ « لَبْلَة » فاتفق ابن هود مع ألفونسو على «محاصرة لَبْلَة ومعاونته على أن يعطيه قرطبة ، واتفقا على ذلك ، وقال له : لا يسوغ أن يدخلها الفرنج على البديهة وإنما تهمل أمرها وتخليها من حرس ، ووجه أنت الفرنج يتعلقون بأسوارها بالليل ويغدرون بها ففعلوا ذلك . ووجه ابن هود إلى واليه بقرطبة فأعلمه بذلك وأمره بضياعها من حيز الشرقية فجاء الفرنج فوجدوه خالياً فجعلوا السلالم واستولوا على السور ، فلا حول ولا قوة إلا بالله ، وكانت قرطبة مدينتين إحداهما الشرقية والأخرى المدينة العظمى ، فقامت الصيحة والناس في صلاة الفجر ، فركب الجند وقالوا للوالي : اخرج بنا للملتقى فقال : اصبروا حتى

---

(١) « نزهة الفضلاء » : ٣/ ١٢٨٢ .

يضحي النهار !! فلما أضحى ركب وخرج معهم ، فلما أشرف على الفرنج قال : ارجعوا حتى ألبس سلاحي !! فرجع بهم وهم يصدقونه ، وذا أمر قد دبر بليل ، فدخل الفرنج على إثرهم وانتشروا ، وهرب الناس إلى البلد ، وقتل خلق من الشيوخ ، و الولدان والنسوان ، ونهب للناس ما لا يحصى ، وانحصرت المدينة العظمى بالخلق فحاصرهم الفرنج شهوراً . وقاتلوهم أشد القتال ، وعدم أهلها الأقوات ومات خلق كثير جوعاً ، ثم اتفق رأيهم مع أذفونش - لعنه الله - على أن يسلموها ويخرجوا بأمتعتهم كلها ، ففعل ووفى لهم ووصلهم إلى مأمنهم في سنة أربع وثلاثين وستمائة »[١].

هكذا - أخي المسلم - تباع البلاد لقاء غايات رخيصة وطلباً لمطامع دنيئة حتى فقد الناس الثقة في حكامهم وقادتهم، ويتضح هذا من خلال هذا النص :

« حين استشهد حاكم سَرَقُسطة أبو جعفر أحمد المستعين بالله سنة ٥٠٣ وخلفه ابنه أبو مروان عبد الملك عماد الدولة

---

(١) المصدر السابق : ٣/ ١٥٧٨ .

بايعه الناس بسَرَقُسْطة بعدما اشترطوا عليه ألا يستخدم الروم ولا يتلبس بشيء من أمرهم »[1] .

هذه أسباب سقوط المدن الأندلسية واحدة تلو الأخرى مجملة ، إذ لا يتسع المقام للتفصيل ولا يطيقه القلب أيضاً .

❊ ❊ ❊

---

(١) « التاريخ الأندلسي » : ٤٠١-٤٠٢ نقلاً عن « البيان المغرب » وغيره .

صور لسقوط بعض المدن الأندلسية

وأما المدن وسقوطها فقد مر بعضه، وسأعرض عدداً من النصوص تبين حال المسلمين عند سقوط هذه المدن والذلة التي أصابتهم :

١ - بعد أخذ النصارى - لعنهم الله - طليطلة شرعوا في تغيير الجامع إلى كنيسة بعد شهرين مع أن نصوص تسليم المدينة قد نُص فيها على « أن يحتفظ المسلمون إلى الأبد بمسجدهم الجامع » ، ولما ذهب النصارى إلى الجامع لم يجدوا فيه إلا « الشيخ الأستاذ المغامي آخر من صدر عنه ، واعتمده في ذلك اليوم ليتزود منه . . وبين يديه أحد تلامذته يقرأ ، فكلما قالوا له : عجل ، أشار هو إلى تلميذه بأن أكمل ، ثم قام ما طاش ولا تهيب ، فسجد به واقترب ، وبكي عليه مليّاً وانتحب ، والنصارى يعظمون شأنه ويهابون مكانه ، لم تمتد إليه يد ، ولا عرض له بمكروه أحد »[1] .

---

(١) « التاريخ الأندلسي »: ٣٣٤ نقلاً عن « الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة » وغيرها .

وقد فطن الشاعر ابن العسال لحقيقة ما يجري فصاح بالأندلسيين :

حثوا رواحلكم يا أهـــل أندلس

فما المقـــــام بها إلا من الغلط

السلـــك ينثر من أطرافه وأرى

سلك الجزيرة منثوراً من الوسط

من جاور الشر لا يأمن بوائقـــه

كيف الحياة مع الحيات في سفط [1]

وهي دعـوة لا تخلـو من اليـأس والقنوط من انصـلاح الحال .

٢ - وبعد سقوط بَرْبَشْتْرُ قدرعدد الأسرى والقتلى ما بين خمسين إلى مائة ألف شخص ، « وحصل للعدو من الأموال والأمتعة ما لا يحصى ، حتى إن الذي خص بعض مقدمي العدو وهو قائد خيل رومة نحو ألف

(١) وعاء .

وخمسمائة جارية أبكاراً ، ومن أوقـــار [١] الأمتعة والحلى والكسوة خمسمائة جمل ، واقتسم الفرنجة الناس وأخذ كل واحد منهم داراً بمن فيها من أهلها ، وكان الفرنج - لعنهم الله تعالى - يفتضون البكر بحضرة أبيها ، والثيب بعين زوجها وأهلها ، وجرى من هذه الأحوال ما لم يشهد المسلمون مثله قط فيما مضى من الزمان ، ومن لم يرض منهم أن يفعل ذلك في خادم أو ذات مهنة أعطاهن خدمه وغلمانه يعيثون فيهن عَيْثة ، وبلغ الكفرة منهم يومئذ ما لا تلحقه الصفة على الحقيقة ، ولما عزم ملك الروم على القفول إلى بلده تخير من بنات المسلمين الجواري الأبكار والثيبات ذوات الجمال ومن صبيانهم الحسان ألوفاً عدة حملهم معه ليهديهم إلى من هم فوقه » [٢] .

وأورد أبو حيان - رحمه الله تعالى - قصة تبكي القارىء وتذهل العاقل وحاصلها أن تاجراً من تجار اليهود جاء إلى بَرْبَشْتْرُ ليفتدي بعض بنات ذوي الوجوه المسلمين ممن نجين

---

(١) أحمال .

(٢) « نفح الطيب » : ٦/ ٢٣٩ - ٢٤٠ بتصرف .

من الحادثة ، وكن تلك البنات قد وقعن في سهم رجل من النصارى يعرفه ، فقال :

« فهُديت إلى منزله فيها ، واستأذنت عليه فوجدته جالسا مكان رب الدار ، مستوياً على فراشه ، رافلاً في نفيس ثيابه والمجلس والسرير كما خلفهما ربهما يوم محنته لم يغير شيئاً من رياشهما وزينتهما ، ووصائفه مضمومات الشعور ، قائمات على رأسه ، ساعيات في خدمته ، فرحب بي وسألني عن قصدي . . فأشرت إلى وفور ما أبذله في بعض اللواتي على رأسه وفيهن كانت حاجتى ، فتبسم وقال بلسانه : ما أسرع ما طمعت فيما عرضناه لك ، اعرض عمن هنا وتعرض لمن شئت ممن صيرته لحصني من سبيي وأسراي أقارِبْك فيمن شئتَ منهن .

فقلت له : أما الدخول إلى الحصن فلا رأي لي فيه ، وبقربك أنست ، وفي كنفك اطمأننت ، فسُمْني ببعض من هنا فإني أصير إلى رغبتك .

فقال : وما عندك ؟ قلت : العين الكثير [١] الطيب ، والبَزّ الرفيع الغريب ، فقال : كأنك تشهيني ما ليس عندي ،

(١) أي الذهب .

يا مَجّة ، ينادي بعض أولئك الوصائف ، يريد « يا بهجة » فغيره بعجمته ، قومي فاعرضي عليه ما في ذلك الصندوق فقامت إليه وأقبلت بِبَدَر [١] الدنانير وأكياس الدراهم وأسفاط [٢] الحلي ، فكُشف وجُعل بين يدي العلج [٣] حتى كادت تواري شخصه ، ثم قال لها : أدني إلينا من تلك التخوت ، فأدنت منه عدة من قطع الوشي والخز والديباج الفاخر مما حار له ناظري وبهت ، واسترذلت ما عندي .

ثم قال لي : لقد كثر هذا عندي حتى ما ألذ به ، ثم حلف بإلٰهه أنه لو لم يكن عنده شيء من هذا ثم بذل له بأجمعه في ثمن تلك ما سخت بها يداه ، فهي ابنة صاحب المنزل ، وله حسب في قومه ، اصطفيتها لمزيد جمالها لولادتي حسبما كان قومها يصنعون بنسائنا نحن أيام دولتهم وقد رُدّ لنا الكرة عليهم فصرنا فيما تراه ، وأزيدك بأن تلك الخودة الناعمة [٤] وأشار إلى جارية أخرى قائمة إلى ناحية أخرى مغنية والدها التي كانت تشدو له على نشواته إلى أن أيقظناه من نوماته ، يا فلانة ، يناديها بلكنته ، خذي عودك فغني زائرنا بشجوك .

---

(١) أوعية . (٢) أوعية .
(٣) النصراني الكافر . (٤) أي الفتاة الشابة الناعمة .

قال : فأخذتِ العود ، وقعدت تسويه وإني لأتأمل دمعها يقطر على خدها ، فتسارق العلج مسحه واندفعت تغني بشعر ما فهمته أنا فضلاً عن العلج ، فصار من الغريب أن أظهر الطرب منه ، فلما يئست مما عنده قمت منطلقاً عنه ، وارتدت لتجارتي سواه ، واطلعت لكثرة ما لدى القوم من السبي والمغنم على ما طال عجبي به »[١] .

وكفى بهذه القصة دليلاً على ما أصاب المسلمين من الذل ، فإنا لله وإنا إليه راجعون .

يا غافلاً وله في الدهر موعظة
إن كنت في سِنة فالدهر يقظان [٢]
وماشياً مرحاً يلهيه موطنه
أبعد حمص تغر المرء أوطان [٣]
تلك المصيبة أنست ما تقدمها
وما لها مع طول الدهر نسيان

---

(١) « نفح الطيب » : ٦/ ٢٤٠ - ٢٤٢ بتصرف .
(٢) السنة : النوم .
(٣) حمص هي : إشبيلية سميت بذلك لشبهها بحمص .

يا راكبين عتاق الخيل ضامرة

كأنها في مجال السبق عقبان [١]

وحاملين سيوف الهند مرهفةً

كأنها في ظلام النقع نيران [٢]

وراتعين وراء البحر في دَعَة [٣]

لهم بأوطانهم عز وسلطان

أعندكم نبأ من أهل أندلس

فقد سرى بحديث القوم ركبان

كم يستغيث بنا المستضعفون وهم

قتلى وأسرى فما يهتز إنسان

ماذا التقاطع في الإسلام بينكم

وأنتم يا عباد الله إخوان

---

(١) جمع عقاب وهو طائر معروف .

(٢) النقع : الغبار .

(٣) راحة .

ألا نفـــوس أبيات لها همم
أما على الخير أنصار وأعوان

يا من لذلة قوم بعد عزهم
أحال حالهمُ كفر وطغيانُ

بالأمس كانوا ملوكاً في منازلهم
واليوم هم في بلاد الكفر عبدانُ

فلو تراهم حيارى لا دليل لهم
عليهمُ من ثياب الذل ألوانُ

ولو رأيت بكاهم عند بيعهم
لهالك الأمر واستهوتك أحزانُ

يا رُبَّ أمٍ وطفلٍ حِيل بينهما
كما تفرق أرواح وأبدانُ

وطفلةٍ مثل حسن الشمس إذ طلعت
كأنما هي ياقوت ومرجانُ

يقودها العلج للمكروه مكرهة
والعين باكية والقلب حيرانُ

لمثل هذا يذوب القلب من كمد

إن كان في القلب إسلام وإيمان (١)

ج - وبعد سقوط غرناطة يحدثنا التاريخ عن هذا المشهد: « صعد الكردنال إلى أحد الأبراج بالقصر [قصر الحمراء] ونصب فوقه صليباً كبيراً من فضة ولواء الملكية المسيحية . . وما إن أبصرت الملكة الصليب منصوباً فوق قصر الحمراء حتى انحنت نحو الأرض واقفة على ركبتيها وهي تصلي وتوجه الشكر إلى ربها ، أثار المشهد الحماس في نفوس أعضاء حاشيتها فعكفوا يرتلون الأناشيد الدينية . عند ذلك بدأ فيرديناند وبعض علية القوم وأعيانهم ، يزحفون نحو غرناطة ، ولما دخلوا تقدم نحوه أبو عبد الله [ملك غرناطة] ممتطياً جواده ولما دنا من فرناندو تهيأ للنزول عن صهوته ليقدم التحية إلى الملك النصراني لكن هذا الأخير أومأ إليه ألا يفعل ، شفقة عليه ، فقبّل أبو عبد الله - مع ذلك - ذراع

---

(١) من قصيدة لأبي البقاء الرندي يرثي فيها الأندلس ، وطالعها كاملة في « نفح الطيب » : ٦/ ٢٧٩-٢٨١ .

فيرديناند اليمني وقدم إليه مفاتيح القصر »[١] .

وهذا الذل الذي قبل به أبو عبد الله الصغير كان رجاء أن يوفي النصارى بوعودهم للمسلمين بالحفاظ على شعائر الإسلام وحرية التدين ، فماذا حدث بعد هذه الذلة وهذا التنازل للنصارى ؟ .

لا تسأل بعد ذلك عما حدث من الملكين فرديناد وإيزابيلا من نكث الوعود وإحراق كتب المسلمين[٢] لإزهاق الحضارة الإسلامية ، ومن فرض التعميد على الأطفال ، ومن منع أداء شعائر الإسلام ، ومن منع التسمي بأسماء عربية ، ومن منع الختان ، ومن منع التحدث بالعربية ، إلخ . . . .

(١) « الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب » : ٥٥ نقلاً عن « محنة العرب في الأندلس » .

(٢) « جُمع ما يقارب مليون كتاب مخطوط من المكتبات العامة والمكتبات الخاصة وأحرقت بأمر أحد الكرادلة السفلة في ميدان غرناطة ، وكان هذا العدد من الكتب يفوق كافة الكتب الموجودة في مكتبات أوروبا بكاملها ، بل لم تكن في أوروبا آن ذاك مكتبة واحدة تمكنت من جمع عشرة آلاف مجلد » .

« موقف الدولة العثمانية » : ٤٠ ، نقلاً عن «تاريخ الدولة العثمانية» لمؤلفه يلماز أوزوتا .

«ثم بعد ذلك دعاهم [أي ملك غرناطة النصراني] إلى التنصير وأكرههم عليه وذلك في سنة أربع وتسعمائة فدخلوا في دينه كرهاً ، وصارت الأندلس كلها نصرانية ، ولم يبق من يقول فيها لا إله إلا الله محمد رسول الله جهراً إلا من يقولها في قلبه أو خفية من الناس ، وجعلت النواقيس في صوامعها بعد الأذان ، وفي مساجدها الصوَر والصلبان بعد ذكر الله تعالى وتلاوة القرآن ، فكم فيها من عين باكية وكم فيها من قلب حزين ، وكم فيها من الضعفاء والمعدومين ، ومن لم يقدروا على الهجرة واللحوق بإخوانهم المسلمين ، قلوبهم تشتعل ودموعهم تسيل سيلاً غزيراً مدراراً ، وينظرون أولادهم وبناتهم يعبدون الصلبان ويأكلون الخنزير ويشربون الخمر . . فلا يقدرون على منعهم . . ومن فعل ذلك عوقب أشد العقاب ، فيا لها من فجعة ما أمرها ومصيبة ما أعظمها » [1] .

وسُمي المسلمون الباقون بالأندلس بالمدجنين ، وبعد فرض

---

(١) « الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب » : ٥٦-٥٧ بتصرف يسير .

التعميد على المسلمين سُمُّوا : « موريسكيين » ومعناه المسلمون الداخلون في النصرانية حديثاً ، وحتى هؤلاء الذين دخلوا في النصرانية ظاهراً تحت الضغط لم يسلموا من الإجراءات المتعسفة التي يقوم بها ضدهم الرهبان والأساقفة وتساعدهم الحكومة ، وأقاموا لهم محاكم تفتيش ألزمتهم بقرارات تفوح منها الذلة والصغار ، ولقد حاول المسلمون مراراً أن يثوروا وقاموا فعلاً بثورات ولكنها أُخْمدت كلها نتيجة عوامل متعددة يضيق المقام عن ذكرها .

ولم تُجْدِ كل الإجراءات التعسفية التي قام بها الصليبيون ضد المسلمين ، واستقر الأمر على إخراج المسلمين إلى أرض المغرب ، وكان هذا في أوائل القرن السابع عشر الميلادي ، وفرح المسلمون بهذا الفرج الذي طالما دعوا الله تعالى أن ينالوه ، بينما رفض قسم منهم الخروج وثاروا على الإسبان ولكن الإسبان استطاعوا أن يستوعبوا ثورتهم [١] .

---

(١) « الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب » : ١٢٥ - ١٢٦ بتصرف .

محاولات إصلاحية

قد يسأل سائل : ألم يكن هناك دعاة لدين الله تعالى يحذرون الحكام المسلمين من الخلاف وينبهونهم إلى ما سيحل بهم من العقاب ؟ وهذا سؤال في محله ، والجواب : بلى كان هناك دعاة إلى الاجتماع والاتحاد ولكن الحكام لم يكونوا متعاطفين مع تلك الدعوة لأن معناها التنازل عما هم فيه من الترف والنعيم والتسليم لخليفة واحد لا يرضونه ولا يريدون حكمه ، هذا مع ماجبلت عليه نفوسهم من حب المعاصي والخيانة وتذبذب الولاء والبراء كما بينت سابقاً .

وفي تاريخنا الإسلامي مثل مضيء لداعية من الدعاة لم يعجبه موقف الحكام الأندلسيين من سكوتهم على الخطر المنذر بالنهاية فـ « رفع صوته بالاحتساب ، ومشى بين ملوك أهل الجزيرة لصلة ما انبت[1] من تلك الأسباب ، فقام مقام

(١) انبت : انقطع .

مؤمن آل فرعون لو صادف أسماعاً واعية ، بل نفخ في عظام ناخرة ، وعطف على أطلال داثرة ، بيد [١] أنه كلما وفد على ملك منهم في ظاهر أمره لقيه بالترحيب ، وأجزل حظه في التأنس والتقريب ، وهو في الباطن يستجهل نزعته ، ويستثقل طلعته ، وما كان أفطن الفقيه رحمه الله بأمورهم ، وأعلمه بتدبيرهم ، لكنه كان يرجو حالاً تثوب [٢] ومذنباً يتوب » [٣] .

كان هذا الفقيه هو أبا الوليد الباجي رحمه الله تعالى ، ولكنه كما قال المقري : « لم يفد شيئاً ، فالله تعالى يجازيه عن نيته » [٣] ، واستمر رحمه الله تعالى في دعوته تلك ثلاث عشرة سنة حتى « توفي بالمرية سنة ٤٧٤ . . وكان جاء إلى المرية سفيراً بين رؤساء الأندلس يؤلفهم على نصرة الإسلام ويروم جمع كلمتهم مع جنود ملك المغرب المرابطين على ذلك فتوفي قبل تمام غرضه رحمه الله » [٥] .

---

(١) بالرغم من . (٢) أي ترجع .
(٣) « التاريخ الأندلسي » : ٣٣٩ نقلاً عن « الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة »
(٤) المرجع السابق .
(٥) المرجع السابق : ٣٤٣ نقلاً عن « ترتيب المدارك » .

ولم يكن في الساحة وحده رحمه الله تعالى بل كان معه نجوم هو شمسهم منهم أبو حيان ، وأبو الحزم جهور بن محمد بن جهور ، وابن حزم ، والإلبيري ، والعسال الطليطلي ، وابن عبد البر ، كل هؤلاء شاركوا في جهود الإنقاذ والدعوة إلى الاتحاد والحذر من الخطر القائم ، شاركوا بشعرهم وكتابتهم ودروسهم [١] .

❊ ❊ ❊

---

(١) انظر المرجع السابق : ٣٤٤ - ٣٤٧ .

نـداءات الاستغاثة

المسلمون مثل الجسد الواحد ، وما يتضرر منه عضو يئن له آخر ، هذه حقيقة ناصعة في تاريخ هذا الدين ، ولقد عرف المسلمون الأندلسيون هذه الحقيقة واستوعبوها وكثر منهم الاستنجاد بإخوانهم المسلمين لنصرتهم ، وكان المسلمون يستجيبون في معظم الأحيان كما سترى أخي القارىء ، إن شاء الله تعالى ، وكانت هذه الاستجابة تتمثل في أشكال رائعة من التلاحم والتعاطف الأخوي الفريد من نوعه والذي اشتهرت به أمة الإسلام .

ولكي يحصل التركيز في دراسة وعرض تلك الاستغاثات وردود الفعل عليها قسمت نداءات الاستغاثة إلى ثلاثة أقسام :

القسـم الأول :

الاستغاثة بأهـــل المغـرب الأوســـط والأقصى .

القسم الثـانـي :

الاستغاثـة بالمماليك سلاطين مصر والشام والحجاز .

القسم الثـالث :

الاستغاثة بسلاطين بني عثمان .

* * *

القسم الأول

الاستغاثة بأهل المغرب الأوسط والأقصى

كان حكام المغرب قد تلقوا عدة استغاثات من الأندلسيين فكانوا إزاءها ثلاثة أصناف :

صنف من الحكام استغيث بهم فضربوا أروع الأمثلة في الاستجابة ، وصنف آخر لم يتمكنوا من الاستجابة لظروفهم الداخلية ، وصنف خانوا من استغاث بهم ودلوا الصليبيين عليهم ، وهذا القسم هو القليل النادر ، والحمد لله .

وأما الصنف الأول فسأنتقي منه ما يلي :

أولاً: استغاثة أهل المغرب بالسلطان المرابطي يوسف ابن تاشفين ، وكانت استجابة السلطان مثلاً رائعاً للأخوة الإسلامية .

يقول المقري : « وكان يوسف بن تاشفين لا تزال تفد عليه وفود ثغور الأندلس مستعطفين ، مجهشين بالبكاء ، ناشدين بالله والإسلام ، مستنجدين بفقهاء حضرته ووزراء دولته ، فيسمع إليهم ويصغي لقولهم وترق نفسه لهم »[1]

وذكر المقري أن الأذفونش [ألفونسو] لما ملك طليطلة أرسل إليه المعتمد الضريبة [الجزية] المعتادة فلم يقبلها منه ، وأرسل إليه يتهدده بأن يسلمه جميع الحصون المنيعة ، وأمعن في التجني وسأل في دخول امرأته إلى جامع قرطبة لتلد فيه ، إذ كانت حاملاً ، لما أشار عليه القسيسون والأساقفة بذلك لمكان كنيسة كانت في الجانب الغربي منه معظمة عندهم عمل عليها المسلمون الجامع الأعظم ، وكان السفير في ذلك يهودياً فامتنع ابن عباد فراجعه اليهودي في ذلك وأغلظ في القول وواجهه بما لم يحتمله ابن عباد ، فأخذ ابن عباد محبرة كانت بين يديه وضرب بها رأس اليهودي فأنزل دماغه في حلقه ، وأمر به فصلب منكوساً بقرطبة .

---

(١) « نفح الطيب » : ٦/ ١٣٩ .

وبلغ الأذفونش ما صنع ابن عباد فأقسم بآلهته ليغزونه بإشبيلية ، وكتب إليه مهدداً : كثر بطول مقامي في مجلسي الذباب ، واشتد علي الحر فأتحفني من قصرك بمروحة أروح بها على نفسي وأطرد الذباب عن وجهي ، فرد عليه ابن عباد قرأت كتابك وفهمت خيلاءك وإعجابك ، وسأنظر لك في مروحة من الجلود اللمطية [١] تروح منك لا تروح عليك إن شاء الله تعالى ، فلما وصلت الأذفونش رسالة ابن عباد وقرئت عليه أطرق إطراق من لم يخطر له ذلك ببال .

وفشا في الأندلس ما أظهره ابن عباد من العزيمة على جواز يوسف بن تاشفين والاستظهار به على العدو ، فاستبشر الناس وفرحوا بذلك وفتحت لهم أبواب الآمال ، وأما ملوك الطوائف فقد اهتموا منه ، ومنهم من كاتبه ومنهم من كلمه مواجهة وحذروه عاقبة ذلك ، فأجابهم ابن عباد بكلمته التي أصبحت مثلاً : رَعْيُ الجمال خير من رعي الخنازير ، أي أن كونه أسيراً لابن تاشفين يرعى جماله في

---

(١) يشير ابن عبّاد إلى المرابطين .

الصحراء خير من كونه أسيراً للأذفونش يرعى خنازيره في قشتالة [١] .

وما إن أرسل المعتمد رسوله إلى ابن تاشفين حتى أمرفي الحال بعبور العساكر إلى الأندلس واجتمع بابن عباد في إشبيلية ، وكتب إليه الأذفونش كتاباً يغلظ له في القول فكتب ابن تاشفين جواباً مختصراً على ظهر كتاب الأذفونش : «الذي يكون ستراه » ، فلما وقف عليه الأذفونش ارتاع له ، وعلم أنه بُلي برجل لا طاقةله به [٢] .

« ثم التقى الجمعان واصطدم الجبلان بـ « الزلاّقة » فانهزم الكلب واستؤصل جمعه وقل من نجا ، في رمضان سنة ٤٧٩ ، وجرح المعتمد في بدنه ووجهه ، وشهد له بالشجاعة والإقدام ، وغنم المسلمون ما لا يوصف » [٣] .

ومن نتائج معركة الزلاقة هذه أن سقوط الأندلس قد تأخر أربعة قرون أخرى .

---

(١) أرأيت أخي القارىء كيف يكون الولاء والبراء .

(٢) « نفح الطيب » : ٦/ ١٣٦-١٤١ بتصرف كثير .

(٣) « نزهة الفضلاء » : ٣/ ١٣٣٣ .

ثانياً : استنجاد المسلمين بالسلطان أبي الحسن المريني صاحب فاس وأولاده :

وقد كان أمراء الأندلس يكتبون لهم على لسان الأديب ابن الخطيب فكان مما استنجدوا به عدة رسائل طويلة أختار منها ما يلي :

«وإذا تداعت أمم الكفر نصرةً لدينها المكذوب، وحمية لصليبها المنصوب ، فمن يُستدعى لنصر دين الله وحفظ أمانة نبيّه إلا أهل ذلك الوطن . . . إنما الإسلام غريق قد تشبّث بأهدابكم يناشدكم الله في بقية الرَّمَق . . وهذا أوان الاعتناء واختيار الحماة وإعداد الأقوات قبل أن يضيق المجال وتمنع الموانع ، وقد وجهنا هذا الوفد المبارك للحضور بين يديكم . . مذكراً بما يقرب عند الله . . جالباً على من وراءهم بحول الله تعالى من المسلمين البشرى التي تشرح الصدور . . فالمؤمن كثير بأخيه ، ويد الله مع الجماعة ، والمسلمون يدٌ على من سواهم ، والمؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً ، والتعاون على البرّ والتقوى مشروع ، وفي الذكر الحكيم مذكور ، وحق الجار

مشهور . . »[١] .

وقال في رسالة أخرى :

« كأن الدين غير واحد ، كأن هذا القطر لكلمة الإسلام جاحد . . كأن الله غير راء ولا سامع ، فنحن نسألكم بالله الذي تساءلون به والأرحام ، ونأسف من كل هذا الإحجام . . »[٢] .

وقال في رسالة أخرى :

« وإن تشوّفتم إلى أحوال هذا القطر ومن به من المسلمين . . فاعلموا أننا في هذه الأيام نُدافع من العدو تياراً ، ونكابد بحراً زخاراً ، ونتوقع - إلا إن وقى الله تعالى - خطوباً كباراً . . »[٣] .

وقال في رسالة أخرى :

« الذي يوجب نصح الإسلام ، ورَعْيَ الجوار والذّمام إيقاظكم من مراقدكم المستغرقة ، وجمع أهوائكم المتفرقة ،

(١) «نفح الطيب» : ٦/ ١٩٤ . (٢) المصدر السابق : ٦/ ١٩٩-٢٠٠ .
(٣) المصدر السابق : ٦/ ٢٣٣ .

وتهييئكم إلى مصادمة الشدائد المُرْعدة المُبرقة ، وهو أن كبير دين النصرانية الذي إليه ينقادون ، وفي مرضاته يصادقون ويعادون ، وعند رؤية صليبه يكبرون ويسجدون ، لمّا رأى الفتن قد أكلتهم . . أعمل نظره فيما يجمع منهم ما افترق فرمى الإسلام بأمة عددها القَطر المنثال[1] ، وأمرهم ، وشأنهم الامتثال ، أن يُدمنوا لِما ارتضاه من أمته الطاعة ، ويجمعوا في ملته الجماعة ، ويَطْلع الكل على هذه الفئة القليلة الغريبة بغتة كقيام الساعة ، وأقطعهم - قطع الله تعالى بهم - العباد والبلاد وسوّغهم الحريم والأولاد ، وبالله تعالى نستدفع ما لا نطيقه ، ومنه نسأل عادة الفرج فما سُدَّت طريقه ، إلاّ أنّا رأينا غفلة الناس مؤذنة بالبوار ، وأشفقنا للدين المنقطع من وراء البحار ، وقد أصبح مضغة الكفار ، وأردنا أن نهزكم بالموعظة التي تكحل البصائر بميل الاستبصار فإن جبر الله تعالى الخواطر بالضراعة إليه والانكسار ، ونسخ الإعسار بالإيسار ، وأنجد اليمين بأختها اليسار ، وإلا فقد تعيّن في الدنيا والآخرة حظ الخسار ، فإن من ظهر عليه

---

(١) أي المطر المتتابع .

عـدو دين الله تعـالى وهو من الله مـصـروف ، وبالبـاطل مشغوف . . وعلى الحطام المسلوب عنه ملهوف فقد تلّه [١] الشيطان للجبين ، وقد خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين، ومَن . . أفرد بالعبوديّة وجه الواحد الأحد المعبود ، ووطّن النفس على الشهادة المبوِّئة دار الخلود ، العائدة بالحياة الدائمة والوجود ، أو الظهـور على عـدوه المحشـور إليـه المحشـود ، صبراً على المقام المحمود ، وبَيْعاً من الله تكون الملائكة فيه الشهود . . كان على أمريه بالخيار المودود ﴿ **قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين . . . الآية** ﴾ [٢] .

ولقد استجاب السلطان أبو الحسن المُريني وأهله وشعبه استجابة طيبة وليس أدل على ذلك من هذا النص :

« وكـان مـجـتـهـداً في الجـهـاد بنفـسـه وحُرَمـه ، وجـاز للأندلس برسم ذلك [٣] بنفسه ، وأظهر آثاره الجميلة ، ومنها ارتجاع جبـل الفـتح ليـد المسلمـين بعـد أن أنفـق علـيـه

(١) أي ألقاه على وجهه .
(٢) « نفح الطيب » : ٦/ ٢٣٤-٢٣٥ بتصرف .
(٣) أي لغرض الجهاد .

الأموال ، وصرف إليه الجنود والحشود . . ونازلته جيوشه مع ولده وخواصه وضيقوا به إلى أن استرجعوه ليد المسلمين . . »[١] .

ثالثاً : استغاثة أهل بلَنسْية بصاحب إفريقية [تونس] أبي زكريّا بن أبي حفص :

إذ أنهم قد أرسلوا إليه الكاتب الشهير ابن الأبّار القضاعي فأنشده هذه القصيدة التي سأورد بعضها :

أدْرِك بخيلك خيلِ الله أندلساً
إن السبيل إلى منجاتها دَرَسا[٢]

وهب لها من عزيز النصر ما التمست
فلم يزل منك عز النصر مُلتمَسا

تقاسم الروم لا نالت مقاسمهم
إلا عقائلها المحجوبة الأنسا[٣]

(١) المصدر السابق : ٦/ ١٨٧-١٨٨ .
(٢) أي أن الطريق إلى منجاتها طمست معالمه .
(٣) أي نساءها المتحجبات .

وفي بَلَنْسِـيَة منها وقرطبـة
ما ينسف النفس أو ما ينزف النَّفَسا
مدائن حَلّها الإشـراك مبتسماً
جَذْلانَ[1] وارتحل الإيمـان مبتئسـاً
يا للمساجد عادت للعدا بيَعـاً
وللنداء غدا أثنـاءها جرسـاً
سرعان ما عاث جيش الكفر واحربَا
عيث الدَّبَى[2] في مغانيها التي كبسـا
محا محاسنَهـا طاغ أتيـح لها
ما نام عن هضمـها حيناً ولا نَعِسا
وأكثر الزعم بالتثليـث منفرداً
ولو رأى راية التوحيـد ما نبسـا

---

(١) فرحان .
(٢) الدَّبى : الجراد .

صل حبلها أيها المولى الرحيم فما
أبقى المراس لها حبـــلاً ولا مرسا

وهي قصيدة جميلة طويلة :

« فبادرالسلطان لإعانتهم وشحن الأساطيل بالمدد إليهم فوجدوهم في هوة الحصار »[١] .

رابعاً : وقعة الأرَك :

وذلك أن ألفونســو كان قد عقد معاهـدة مع المسلمين ، فلما انقضت المدة بعث إلى جميع ثغـور المسلمـين المجاورة له لينذرهـم ويحذرهم ، فعلـم بذلك سلطــان الموحدين أبو يوسف يعقــوب المنصور « فتجـهز لقصدهم في جيــوش موفّــرة وعساكر . . وجــاز إلــى الأندلــس سنــة ٥٩١ هـ فعلم به الإفرنج فجمعـــوا جمعـاً كثيـراً من أقــاصي بلادهم وأدانيها وأقبــلوا نحــوه »[٢] ، وكــان جيــش النصارى كثيفاً « ينيف على خمســة وعشـرين ألــف فارس ومائتي ألف راجــل ، وكان مـعـه جـماعـات من تجــار اليهــود قــد وصلـــوا لاشتــراء أسرى المسلمين وأسلابهــم

---

(١) « نفح الطيب » : ٦/ ٢٤٧-٢٥١ .
(٢) المصدر السابق : ٦/ ١٦٢ .

وأعدوا أموالاً »[١] .

« فلمّا تراءى الجمعان اشتد خوف الموحدين وساءت ظنونهم لِما رأوا من كثرة عدوهم ، وأمير المؤمنين في ذلك كله لا مستند له إلا الدعاء، والاستعانة بكل من يظن عنده خيراً من الصالحين»[٢] .

وخاطب القائد العام الجند وأبلغهم بأنه «يقول لكم أمير المؤمنين اغفروا له ، فإن هذا موضع غفران، وتغافروا فيما بينكم ، وطيبوا نفوسكم وأخلصوا لله نياتكم . فبكى الناس وأعظموا ما سمعوه من سلطانهم وما جرى إليهم من حسن معاملته» .

« ثم قام الخطيب وحرّض على الجهاد وفضله والتنبيه على مكانه وقدره ، ومدّ القول في ذلك بما وسعه من بيانه ، وانفض الناس وقد تنورّت بصائرهم ، وخلصت لله ضمائرهم وسرائرهم ، وقويت أنفسهم واعتزامهم ، وتضاعفت نجدتهم وإقدامهم »[٣] .

---

(١) « التاريخ الأندلسيّ » : ٤٨٦ نقلاً عن « بغية الملتمس » .
(٢) المرجع السابق : نقلاً عن « المعجب » .
(٣) المرجع السابق : نقلاً عن « البيان المُغرب » .

وأما القَشْتاليون فقد « هبطوا من مركزهم كالليل الدامس والبحر الزاخر ، وأسراباً تتلو أسراباً ، وأمواجاً تعقب أمواجاً، ليس إلا الصهيل والضجيج والحديد . . فمالوا على الميسرة فتزحزح قوم المطوعة وأخلاط من السوقة والرجرجة ، فصعد غبارها إلى الجو ، فقال المنصور لخاصته ومن طاف به : جددوا نياتكم وأحضروا قلوبكم ، ثم تحرك وحده . . وسار منفرداً من خاصته مقدماً بشهامته ونجدته ، ومر على الصفوف والقبائل وألقى إليهم بنفسه كلاماً وجيزاً في الهجوم على عدوهم والنفود إليه ، وعاد إلى موضعه »[1] وكتب الله سبحانه وتعالى النصر على الكافرين في يوم واحد ، ومَنح المسلمين أكتافهم ، والحمد لله .

وأما الصنف الثاني فهو نداءات الاستغاثة التي لم يستجب لها الحكام فهي قليلة ولكنها مؤثرة

وهي غالباً في العهد الأخير قبل سقوط غرناطة بقليل ، يقول مؤرخ أندلسي مجهول :

« إن إخواننا المسلمين من أهل عُدوة المغرب بعثنا إليهم فلم يأتنا أحد منهم ، ولا عرج على نصرتنا وإغاثتنا ، وعدونا قد بنى علينا وسكن [أي حال المحاصرة] وهو يزداد قوة ونحن نزداد ضعفاً ، والمدد يأتيه من بلاده ونحن لا مدد لنا »[2] .

---

(١) المرجع السابق : ٤٨٧ نقلاً عن « البيان المغرب » .

(٢) « الدراسات الإسلامية » : ٤٩ .

ويقول المقرّي « ولما قصد ملوك الإفرنج السبعة في المائة الثامنة غرناطة ليأخذوها اتفق أهلها على أن يبعثوا لصاحب الغرب من بني مرين يستنجدوه وعينوا للرسالة الشيخ أبا إسحاق بن أبي العاصي والشيخ أبا عبد الله الطنجالي والشيخ ابن الزيات البلشي . . ثم بعد سفرهم نازل الإفرنج غرناطة بخمسة وثلاثين ألف فارس ونحو مائة ألف راجل مقاتل ، ولم يوافقهم سلطان المغرب ، فقضى الله تعالى ببركة المشايخ الثلاثة أن كُسر النصارى في الساعة التي كسر خواطرهم فيها صاحب المغرب » [(١)] .

ولعل ملوك المغرب لم يستجيبوا لبعض الاستغاثات نتيجة للمجاعة الهائلة التي طرقت المغرب في تلك الفترة ، والله أعلم [(٢)] .

وأما الصنف الثالث ، وهو خيانة بعض ملوك المغرب لهم ، فهو الطامة الكبرى وإن كان نزراً يسيراً ، فقد استغاث

---

(١) « نفح الطيب » ٦/ ٣٠٥ بتصرف يسير .
(٢) « الدراسات الإسلامية » : ٤٩-٥٠ .

الموريسيكيون [١] بالمأمون وذلك « أن المسلمين لما كانوا فى بلاد النصارى أعلمه رئيسهم [٢] بأن جلهم في الجيش ، وأنهم مستعدون ، وأنهم أقوام كثيرة نحو ثمانية آلاف رجل يقومون على النصارى ويستندون عليه في قيامهم عليهم ظناً منهم أنه مسلم ينصر المسلمين ويعينهم ، ففضح بسرهم عند سلطان النصارى وأراد أن يحرق جموعاً منهم ، فتشفع فيهم لأجل صداقته له واستشار فيهم فأشار عليه أن يخرجهم من أرضه فكان الأمر كذلك » [٣] .

وأما خيانته الثانية فكانت تسليم مدينة العرائش المغربية إلى الإسبان سنة ١٦١٠ مقابل ٢٠٠ ألف دوكا ، وقد كانت مرفأ بحرياً مهماً لعمليات الجهاد البحري الذي كان يقوم به الموريسيكيون ضد النصارى ، بالإضافة إلى أنها كانت ملجأ لعدد من الموريسكيين الذين قرروا الاستقرار بالمنطقة [٤] .

---

(١) من أظهر التنصر في الأندلس .
(٢) أي أعلم رئيس المسلمين المأمون .
(٣) « الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب » : ١٢٢ .
(٤) المرجع السابق .

« ووصل بـه الأمر في الأخيـر إلى أن أسـرى المسلمين كـانوا يفرون من طنجة [وقد كانت بيد النصارى] فيعيدهم إليها »[١] ، وكانت عاقبة أمره خسراً فقتله مجاهدو تطوان سنة ١٦١٣م ، ١٠٢٢ هـ[٢] .

❊ ❊ ❊

(١) المرجع السابق .
(٢) المرجع السابق .

القسم الثاني

استغاثات الأندلسيين بالمماليك ملوك مصر والشام والحجاز

وصلت رسالة السلطان أبي الحسن المريني إلى سلطان المماليك في مصر يصف له فيها ما حدث بالأندلس وكانت هذه الرسالة سنة ٧٤٥ فاعتذر صاحب مصر عن المساعدة المادية قائلاً :

« وأما ما وصفتموه من أمر الجزيرة الخضراء وما لاقاه أهلها . . فإنه شق علينا سماعه الذي أنكى أهل الإيمان . . ولكن أين الغاية من هذا المدى المتطاول ؟ وأين الثريا من يد المتناول ؟ وما لنا غير إمدادكم بجنود الدعاء الذي نرفعه نحن ورعايانا ، والتوجه الصادق الذي تعرفه ملائكة القبول من سجايانا »[1] .

---

(١) « نفح الطيب » : ٦/ ١٧٩ - ١٨٠ بتصرف .

وهذه استغاثة أخرى من الأندلسيين جرت بين أحد سفرائهم والسلطان المملوكي « الظاهر جُقْمق »، هذا نصها :

« يا مولانا : نصركم الله ، هذا كتاب من صاحب جزيرة الأندلس يشتكي لك ما أصابه من الإفرنج المجاورين له ، ويطلب منك نجدة تعينه بها .

- سأبعث إلى ابن عثمان [أي السلطان العثماني] يعينكم إن شاء الله .

- يا مولانا السلطان نصركم الله ، أنت هو كبير الملوك والسلاطين ، وخديم الحرمين الشريفين ، ولم نجيء إلا إلى حضرتكم ، وحاشاك أن تردنا خائبين .

- إن بلادكم بعيدة ، ولا يمكننا أن نجهز لكم عسكراً .

- إذا لم يمكنكم تجهيز العسكر إلينا فلتُعنا بالمال والعدة ، وما كان لله فهو يحفظه .

- نعم ، أعينكم إن شاء الله بالمال والعدة »[1] .

من هذه المحاورة يتضح لنا صعوبة نجدة المماليك للأندلسيين وسبب ذلك .

---

(١) « موقف الدولة العثمانية » : ٥٢ - ٥٣ .

وحاول بعد ذلك السلطان المملوكي الأشرف أن ينجد أهل غرناطة ، ووقع اتفاقاً مع سلطان العثمانيين بايزيد يقضي بأن يرسل السلطان بايزيد أسطولاً على سواحل صقلية باعتبارها تابعة لمملكة إسبانيا ، وأن يجهز السلطان المملوكي حملات أخرى من ناحية إفريقية (١) .

وقد بعث الملك الأشرف بوفود إلى البابا وملوك النصرانية يذكرهم بأن النصارى الذين هم تحت حمايته يتمتعون بالحرية ، في حين أن أبناء دينه في المدن الإسبانية يعانون أشد أنواع الظلم ، وقد هدد باتباع سياسة التنكيل والقصاص تجاه الرعايا النصارى إذ لم يكف ملك قشتالة وأراغون عن هذا الاعتداء وترحيل المسلمين عن أراضيهم ، وعدم التعرض لهم ورد ما أخذ من أراضيهم . ولم يستجب البابا والملكان الكاثوليكيان لهذا التهديد من قبل الملك الأشرف » (٢) واكتفى كل من فرديناند وإيزابيلا بإجابة السلطان المملوكي بأنهما لا

---

(١) « جهود العثمانيين لإنقاذ الأندلس » ١٣٤ .

(٢) المرجع السابق : ١٢٦ ، وذكر صاحب كتاب « موقف الدولة العثمانية » : ٥٥ ، نقلاًعن مصدر آخر بأنه لم تعد تعر إسبانيا أية أهمية لهذا التهديد لأنها لم تكن قد سمعت أبداً بأن دولة إسلامية أضرت برعاياها المسيحيين المطيعين حيث إن المماليك لم يمسوا المسيحيين في فلسطين بسوء ، ولم يمنعوا الحجاج المسيحيين » ، وهو تحليل حسن .

يستطيعان ترك أرض الأجداد في يد الأجانب ومع ذلك فإنهما لا يفرقان بين رعاياهم في النواحي الدينية [1] .

هذا أقصى ما استطاع سلاطين المماليك أن يفعلوه ، وهو وإن كان فعلاً محدوداً قاصراً إلا أنه يعبر عن نوايا صادقة لنصرة الإسلام والمسلمين .

***

---

(١) ما أشبه الليلة بالبارحة ، هذا فرديناند وإيزابيلا يدعيان أنهما لا يفرقان بين رعاياهما في الأمور الدينية ، وهما يسومونهم العذاب ، وفرنسا تدعي أنها دولة الحريات الدينية وتطرد فيها بنات المسلمين من المدارس لأجل الحجاب ، تباً لهؤلاء الأفاكين .

القسم الثالث

استغاثات الأندلسيين بالعثمانيين

كانت الدولة العثمانية القوة العظمى - في ذلك الوقت - في العالم كله ، وكانت قد أتمت فتح القسطنطينية وأوغلت فتوحاتها في أوروبا ، ولذلك لم تكن نجدتهم للأندلسيين مباشرةً لأنهم كانوا مشغولين بفتح أوروبا ، ولكنهم حاولوا أن ينجدوهم بشتى الوسائل الأخرى .

ولقد جاءت نداءات الاستغاثة معبرة عن وضع الأندلسيين غاية التعبير ، فمما وصل إلى الدولة العثمانية من الاستغاثات :

(أ) وصل إلى السلطان بايزيد هذه الرسالة : « الحضرة العلية وصل الله سعادتها وأعلى كلمتها ، ومهد أقطارها . . » .

سلام عليكم من عبيد تخلفوا
بأندلس الغرب في أرض غربة

أحاط بهم بحر من الروم زاخر
وبحر عميق ذو ظلام ولجة

سلام عليكم من عبيد أصابهم
مصاب عظيم يا لها من مصيبة

سلام عليكم من شيوخ تمزقت
شيوبهم بالنتف من بعد عزة

سلام عليكم من وجوه تكشفت
على جملة الأعلاج من بعد سترة

سلام عليكم من بنات عواتـــق

يسوقهم اللبـــاط قهراً لخلـــوة [١]

سلام عليكم من عجائز أكرهـت

على أكل خنزير ولحم جيفـــــة

وهي قصيدة طويلة ركيكة لكنها معبرة ، ومما قالوه أيضاً :

فلما دخلنا تحت عقد ذمامهـــم

بدا غدرهم فينا بنقض العزيمـــة

وخان عهوداً كان قد غرّنا بهـــا

ونصّرنا كرهاً بعنف وسطــــوة

وأحرق ما كانت لنا من مصاحف

وخلطها بالزبل أو بالنجاســـة

(١) البنات العواتق أي المستورات في بيوتهن .

وكل كتاب كان في أمر ديننـــــا

ففي النار ألقوه بهزء وحقـــــرة

ولم يتركوا فيهـا كتاباً لمسلـــــم

ولا مصحفاً يخلى به للقـــراءة

ومن صام أو صلّى يعلم حالـــه

ففي النار يلقوه على كل حالـــة

ومن لم يجىء منا لموضع كفرهم

يعاقبه اللباط شر العقوبـــــــة

ويلطم خديه ويأخذ مالـــــــه

ويجعله في السجن في سوء حالة

وفي رمضان يفسدون صيامنـــا

بأكل وشرب مرة بعد مـــــرة

وقد أمرونا أن نسب نبينـــــا

ولا نذكرنه في رخاء وشـــــدة

وقد سمعوا قوماً يغنون باسمه

فأدركهم منهم أليم المضـــرة

وعاقبهم حكامهم وولاتهـــم

بضرب وتغريم وسجـــن وذلة

إلى أن قال :

وقد بدلت أسمـاؤنا وتحولـت

بغير رضا منا وغيـــــر إرادة

فآهاً عـلى تبديل دين محمــد

بدين كلاب الروم شر البريـــة

وآهـاً على أسمائنا حين بدلـت

بأسماء أعلاج من أهل القيـادة

وآهاً على أبنائنا وبناتنـــــا

يروحون للباط في كل غــدوة

يعلمهم كفــراً وزوراً وفـــرية

ولا يقدروا أن يمنعوهم بحـــيلة

وآهاً على تلك المساجـد سُورت

مزابل للكفار بعــد الطهـــارة

وآهاً على تلك البلاد وحسنـــها

لقد أظلمت بالكفر أعظم ظلـمة

وصارت لعباد الصليب معاقـلاً

وقد أمنوا فيها وقوع الإغـــارة

وصرنا عبيداً لا أسارى فنفتـدى

ولا مسلمين منطقهم بالشهـــادة

فلو أبصرت عيناك ما صار حالنا

إليه لجادت بالدمـــوع الغزيرة

فيا ويلنا يا بؤس ما قد أصابنـــا

من الضر والبلوى وثوب المذلّـة

سألناك يا مـــولانا بالله ربنــــا
وبالمصطفـى المختــار خير البريـــة
عسى تنظروا فينا وفيما أصابنــــا
لعل إله العرش يأتــي برحمــــة
فقولك مسموع وأمــرك نافـــذ
وما قلت من شيء يكون بسرعـــة
ودين النصارى أصله تحت حكمكم
ومن ثم يأتيهم إلى كل كـــورة (١)
فبالله يا مولاي منوا بفضلكـــم
علينا برأي أو كـــلام بحجّـــة
فأنتم أولو الأفضال والمجد والعـلا
وغوث عبــاد الله في كل آفـــة

---

(١) أي مدينة وناحية .

وبعد ذلك يشير إلى رسل سلطان المماليك إلى الملكين فردناند وإيزبيلا :

وقد بلغــــت إرسال مصر إليهــــم
وما نالهــم غدر ولا هتك حرمـــــة

وقالوا لتلك الرّسْــل عنا بأننــــــا
رضينا بدين الكفر من غير قهرة [١]

وساقوا عقود الزور ممن أطاعهــــم
ووالله ما نرضى بتلك الشهـــــادة

لقد كذبوا في قولهم وكلامهـــــــم
علينا بهذا القــــول أكبر فريـــة

ودين رســـول الله ما زال عندنـــــا
وتوحيدنا للــه في كــل لحظـــــــة

---

(١) إشارة إلى أن فرديناند وإيزابيلا قد اعتذرا لسلطان المماليك بأن المسلمين قد دخلوا في دين النصارى طوعاً ، وذلك كذب منهما وبُهتان .

ووالله ما نرضى بتبـــديل ديننــــــــا

ولا بالذي قالـــوه من أمـــر الثلاثـــة

وإن زعموا أنّا رضيـــــــنا بدينهـــم

بغير أذى منهـــــم لنا ومســـــاءة

فسل «وحرا» عن أهلها كيف أصبحوا

أسارى وقتلـــى تحـت ذل ومهنـــة

وسل «بلفيقا» عن قضية أمرهـــــــا

لقد مزّقوا بالسيف من بعد حســـرة

و «ضيافة» بالسيف مُزق أهلهـــــا

كذا فعلوا أيضاً بأهل البشـــــــرة

و « أندرش» بالنار أحرق أهلــــها

بجامعهم صـــاروا جميعاً كفحمـة

فها نحن يا مولاي نشكو إليكـــم

فهذا الذي نلـــناه من شـــر فرقـــة

عسى ديننا يبقى لنا وصلاتنـــــا
كما عاهدونا قبل نقض العزيمــة
وإلا فيجلونا جميعاً عن أرضهم
بأموالـــنا للغرب [١] دار الأحبــة
فإجلاؤنا خير لنا من مقامنـــــا
على الكفر في عز على غير ملــة
فهذا الذي نرجوه من عز جاهكم
ومن عندكم تُقضى لنا كل حاجة

ولكن السلطان بايزيد - رحمه الله - كان يعاني من المشاكل الداخلية والخارجية مما منعه من إرسال المساعدات المطلوبة [٢] .

(ب) ولقد أرسلوا رسالة طويلة إلى السلطان سليمان القانوني يطلبون منه إعادة تعيين خير الدين بارباروس -

---

(١) أي للمغرب
(٢) «جهود العثمانيين لإنقاذ الأندلس» : ١٢٧ - ١٣٤ بتصرف .

والي الجزائر عليها - لأنه قد أنجد الأندلسيين كثيراً ، ومما جاء فيها : « فإن عبيدك الفقراء المساكين المنقطعين بجزيرة الأندلس وجملة عدتهم ثلاث مائة ألف وأربعة وستون ألف . . . رافعين شكواهم وما يلاقون من بلواهم ، باكين متضرعين مستنصرين بعناية مولانا السلطان دام عزه ونصره لما أصابهم من أعداء الدين وطغاة المشركين ، وما هم فيه من مكايدة الكفّار ومقاساة التضييق والإضرار . . . وتحريقهم إيانا بالنّار ، وقد تكالب العدو علينا ومدّ السوء والضرر إلينا . . وطالت بنا الأيام ، وعاثت فينا يد النكاية والإيلام ، وخذلنا جيراننا وإخواننا ببلاد المغرب من أهل الإيمان . . . »[1]

(ج) وفي سنة ٩٧٧ هـ أرسل ابن عبو - أحد قادة مسلمي الأندلس - رسالة إلى مفتي إستانبول جاء فيها :

---

(١) « جهود العثمانيين لإنقاذ الأندلس » : ١٤٠ - ١٤١ بتصرف .

« **أيها الأخ العزيز** . . إن صاحب الجلالة والعظمة السلطان قد أرسل إلينا كتاباً مختوماً بخاتمه يعدنا فيه النصرة بعدد وافر من الرجال المسلحين وبما نحتاج إليه . . وبما أننا نقاسي المتاعب الشديدة . . فإننا نلجأ من جديد إلى الباب العالي نطلب النجدة والمعونة والنصر وإننا إذا ما اندحرنا في هذه المعركة فإن الله سيحاسبه [أي السلطان] على ذلك حساباً عسيراً يوم القيامة»[١]

هذا وإن اتصالات الأندلسيين بآل عثمان قد توالت منذ سنة ٨٩١ إلى سنة ١٠٢٣ هـ[٢] .

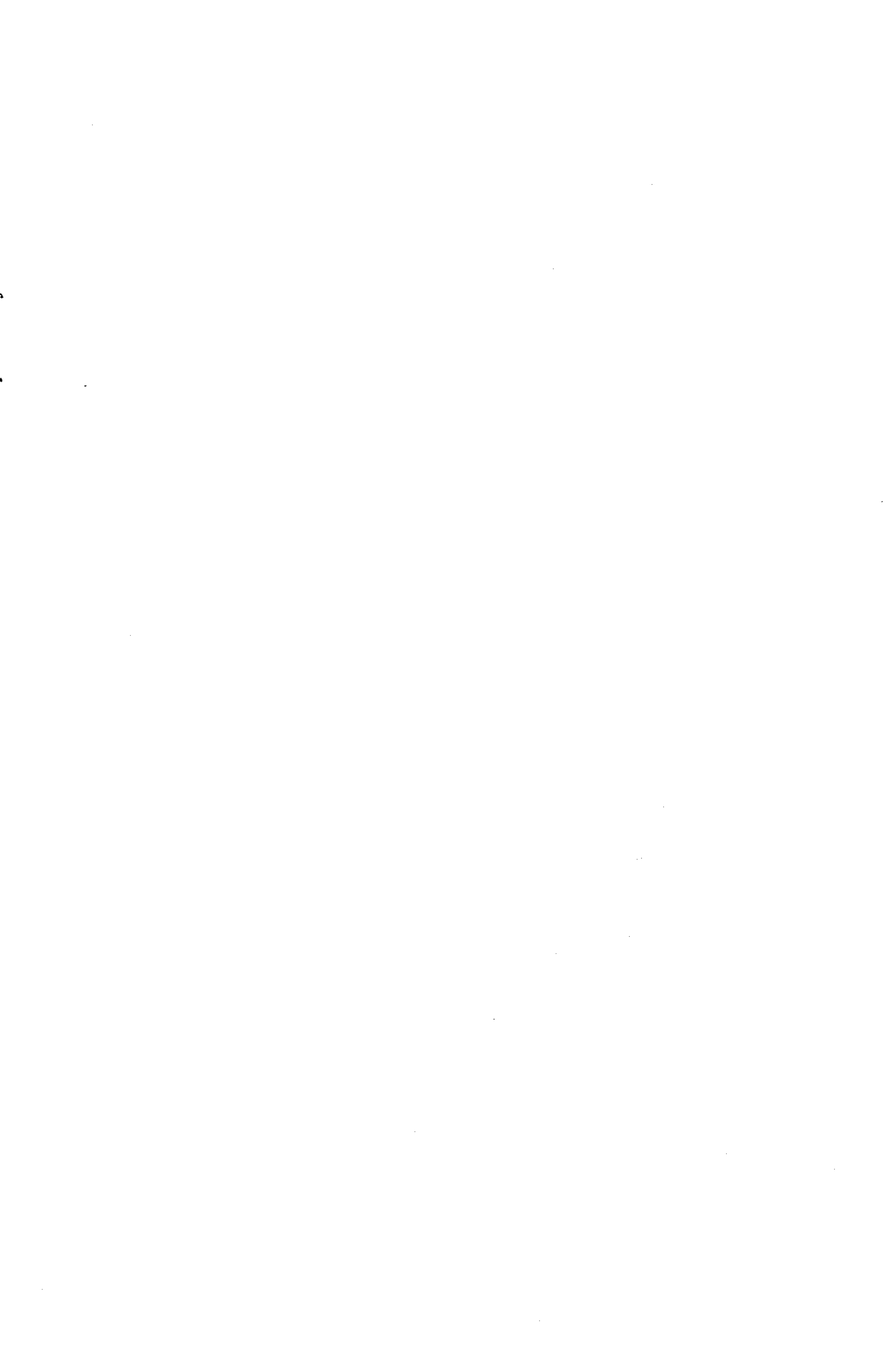
❋ ❋ ❋

(١) « موقف الدولة العثمانية » : ١٠٣ نقلاً عن مصدر آخر .
(٢) المرجع السابق : ١٣٤ .

٢٠٨

٥٧٨





وسائل نجدة العثمانيين للأندلسيين

كانت تلك الوسائل - كما أسلفتُ - وسائل غير مباشرة ، ولكن كان لها دور فعّال في إنقاذ عدد كبير من مسلمي الأندلس ، فمن تلك الوسائل :

أولاً : محاولة استرداد لما أخذه الإسبان من مدن على الساحل الإفريقي :

إذ أنهم تمكنوا من احتلال أجزاء ساحلية لا بأس بها من المغرب والجزائر مثل سبتة ومليلة في المغرب [١] واستطاعوا احتلال مدن المرسى الكبير ووهران وبجاية ومستغانم وتلمسان في الجزائر ، وطرابلس الغرب [٢] ، ولقد قام بهذه المهمة القائد المسلم الشجاع خير الدين باربروس وأخوه

(١) « جهود العثمانيين لإنقاذ الأندلس » : ٢٤٢ ، ٢٤٦ ، ولا زالت تلك المدينتان بأيدي الأسبان إلى الآن .

(٢) المرجع السابق : ٢٤٨ ، ٢٥٣ .

عَرُّوج الذيْن عينا من قبل الدولة العثمانية ، واستطاع خير الدين استعادة الجزائر سنة ٩٢٢ هـ ، ١٥٣٣م [١] ، واستطاع عَرُّوج دخول تلمسان أيضاً ، وأخضع خير الدين تونس للسلطنة العثمانية سنة ٩٤٠ هـ ، ولا يخفى في هذا المقام أن الإسبان عندما دخلوا بعض بلاد المغرب العربي استطاعوا أن يضعوا حكاماً خونة من العرب كانوا دائمي الاتصال بهم حين تعرضهم لهجمات العثمانيين ، فقد كان هؤلاء الحكام يخبرون النصارى بتحركات العثمانيين ضدهم وفي حالة انتصار العثمانيين ودخولهم البلد يفر ذلك الحاكم ويلجأ إلى النصارى ، ولا حول ولا قوة إلا بالله [٢] .

ثانياً:القيام بحملات بحرية ضد إسبانيا منطلقة من سواحل الجزائر :

وقد عقد ممثل الدولة العثمانية في الجزائر « القلج علي » [٣] اتفاقاً سرياً مطلع سنة ٩٧٧ هـ مع المسلمين الأندلسيين [الموريسكيين] المعتصمين بجبال البُشرات ، ويقضي هذا الاتفاق بأن يقوم الموريسكيون بثورة في الوقت

(١) المرجع السابق : ٣١٩ . (٢) المرجع السابق : ٣١٩ ، ٣٠٢ ، ٢٩٤ .
(٣) أي الشهيد علي .

الذي تصل فيه القوات الإسلامية من الجزائر إلى مناطق معينة على الساحل الإسباني ، وبالفعل وصلت أربعون سفينة من سفن الأسطول العثماني أمام مرسى المريةالإسباني لشد أزر الثوار ، لكن أخفق ذلك المخطط بسبب انكشاف أمر أحد رجال الثورة وضَبْط ما معه من سلاح [١] .

ثالثاً : القيام بعمليات إنقاذ الأندلسيين وذلك بنقلهم إلى سواحل المغرب :

ولقد تمكن خير الدين باربروس والي الجزائر من قبل العثمانيين « خلال سبع سنوات أن يوجه ٣٦ بارجة إلى السواحل الإسبانية لنقل سبعين ألف موريسيكي »[٢] .

وقد عاملت الدولة العثمانية الأندلسيين معاملة الرعايا العثمانيين ومنحتهم امتيازات خاصة تعويضاً لهم[٣] .

« ولقي خير الدين هذا استحساناً كبيراً من لدن مسلمي

(١) « جهود العثمانيين لإنقاذ الأندلس » : ٣٩٨-٣٩٩ بتصرف .
(٢) « الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب » : ٨٥ .
(٣) « موقف الدولة العثمانية » : ١٣٨ .

الأندلس ، فقد جاء في رسالة بعث بها أهالي غرناطة إلى السلطان سليمان القانوني سنة ١٥٤١ ما يأتي :

« وقد كان بجوارنا الوزير المكرّم المجاهد في سبيل الله خير الدين وناصر الدين ، وسيف الله على الكافرين ، علم بأحوالنا وما نجده من عظيم أهوالنا لما كان بالجزائر . . . فاستغثنا به فأغاثنا ، وكان سبب خلاص كثير من المسلمين من أيدي الكفرة المتمردين ، ونقلهم إلى أرض الإسلام ، وتحت إيالة طاعة مولانا السلطان »[1] .

وسيرة خير الدين وأخوه عَرّوج مما تستحق أن تفرد بدراسات كثيرة لما كان لهما من أياد بيضاء على أهل الأندلس والمغرب ، ولما أظهراه من بطولات هي قدوة لشباب الإسلام .

رابعاً : قام السلاطين العثمانيون بتطمين الموريسكيين بأنهم معهم ويشعرون بما يجري

---

(١) « الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب » : ٨٥ .

عليهم ، وليس أدل على ذلك من هذه الرسالة :

« إنه على ضوء أمر شريفي إلى بيلرباي الجزائر [١] فيقوم هذا الأخير على تقديم جميع المساعدات والإعانات إليكم وذلك لما أظهرتموه من همة إسلامية ، وغيرة في الدفاع على الدين وعدم ترككم له ، وهذا على الرغم من الحروب والقتال مع الكفار أذلهم الله ، إذ أنكم أبديتم كل أنواع الإقدام والشجاعة . . . ولا تتخلوا عن إعلامنا دائماً بأحوالكم وأوضاعكم في تلك الجهة » .

ولقد جاء في تلك الرسالة أنه بعد فتح الدولة العثمانية لقبرص فإن الأسطول العثماني سوف يتحول إلى إسبانيا لمساعدة الموريسكيين » [٢] .

خامساً : حرص العثمانيون على عدم اتحاد أوروبا ضد الأندلسيين أو غيرهم من المسلمين :

فبذلوا الجهود الدبلوماسية ، وأقاموا علاقات مع فرنسا لإذكاء عداوتها ضد إسبانيا [٣] .

---

(١) أي والي الجزائر من قبل السلطان . (٢) المرجع السابق : ٩٦ ، ٩٧ .
(٣) « موقف الدولة العثمانية » : ١٣٨ .

هذه كانت بعض الخطوات التي قام بها العثمانيون لمساعدة مسلمي الأندلس ، صحيح أنها قد كانت بمثابة «إنقاذ ما يمكن إنقاذه » وليست عملاً عسكرياً مباشراً قوياً إلا أن ما قام به العثمانيون وغيرهم يوضح بجلاء الروح الإسلامية القوية المتعاطفة مع الأندلسيين .

وقد لخص بعض الباحثين [1] أسباب عدم تمكن الدولة العثمانية من استرجاع الأندلس ، وهأنذا أورده ملخصاً لما فيه من الفائدة :

١ - بعد المسافة بين العثمانيين والأندلسيين .

٢ - تضييق الحصار الصليبي على غرناطة باعتبارها الحلقة الأخيرة في سلسلة السيادة الإسلامية .

٣ - عدم اكتمال خبرة العثمانيين البحرية ، حيث كانت معظم حروبهم برية .

٤ - توتر علاقات العثمانيين بدولة المماليك قلّص فرص التعاون لإنقاذ الأندلس .

٥ - انشغال العثمانيين بمجابهة عدد كبير من الأعداء في قارات متعددة .

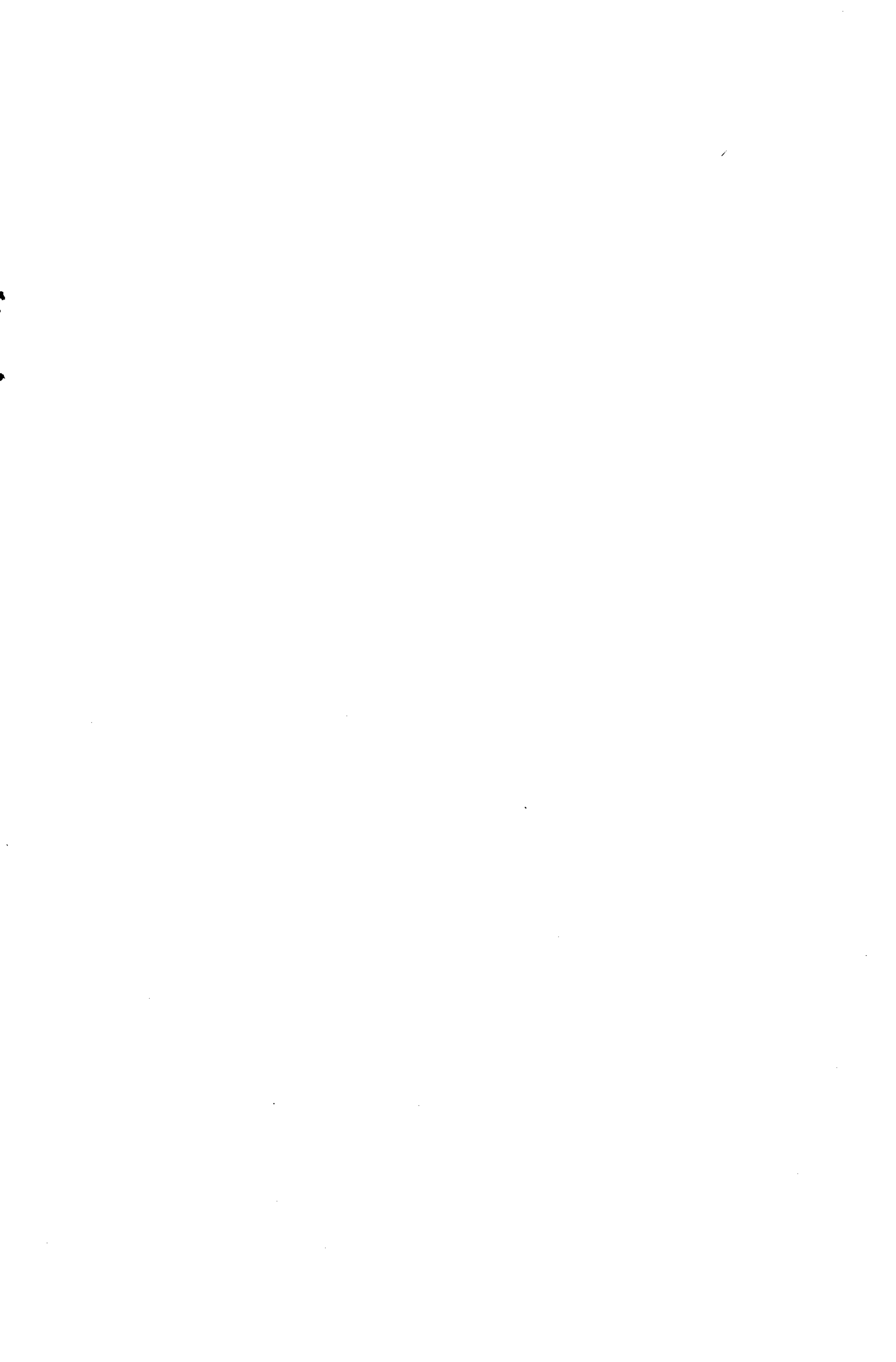
---

(١) المرجع السابق : ١٣٧ - ١٣٨ .

وفي الختام

ندعـو الله سـبـحـانه وتعـالى أن يتـقـبل شـهـداء الأندلس ، وأن يعيـد ذلك الفـردوس المفـقـود ، وأن ينشرالنور والضياء على جميع بقاع المعمورة ، وأن ينصر سبحانه المستضعفين في الأرض من المؤمنين ، ويقيـض لهـم مـن يسمـع صرخاتهم واستغاثاتهم إنه سبحانه سميع مجيب ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، والحمد لله رب العالمين .

* * *



المصادر والمراجع

١ - **القرآن الكريم** .

٢ - « **الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب** » .

٣ - «**التاريـخ الأندلسي من الفتـح الإسلامي حتى سقـوط غرناطـــة** » ، د . عبد الرحمن الحجي . دار الاعتصام . مصر . الطبعة الأولى ١٤٠٣ هـ

٤ - « **جهـود العثمانيين لإنقاذ الأندلس واستـرداده في مطلع العصـر الحديث** » . د . نبيل رضوان . مكتبة الطالب الجامعي . مكة المكرمة . الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ

٥ - « **الدراسات الإسلامية** » مجلة إسلامية علمية . عدد خاص عن الأندلس . تصدر عن الجامعة الإسلامية العالمية . إسلام آباد . باكستان .

٦ - « **موقف الدولـــة العثمانـــية تجاه مأســاة المسلـمين في الأندلس** » . د. عبد اللطيف الحميد . طبع شركة العبيكان . الرياض .

٧ - « **نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء** » . للمؤلف نشر دارالأندلس . جدة . الطبعة الأولى ١٤١١ هـ .

٨ - « **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب** » الشيخ أحمد المقري التلمساني - تحقيق الأستاذ يوسف البقاعي . نشر دار الفكر . بيروت .

الفهرس

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة